الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة زيان عاشور– الجلفة

كلية الآداب واللغات والفنون

قسم اللغة العربية وآدابها

محاضرات في مقياس نظرية النظم

السنة: الثالثة

التخصص: اللسانيات العامة

د. عبد الحفيظ مراح

الموسم الجامعي

2025/2024

الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة زيان عاشور– الجلفة

كلية الآداب واللغات والفنون

قسم اللغة العربية وآدابها

محاضرات في مقياس نظرية النظم

السنة: الثالثة

التخصص: اللسانيات العامة

د. عبد الحفيظ مراح

الموسم الجامعي

2025/2024

الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة زيان عاشور– الجلفة

كلية الآداب واللغات والفنون

قسم اللغة العربية وآدابها

محاضرات في مقياس نظرية النظم

السنة: الثالثة

التخصص: اللسانيات العامة

حسب البرنامج الجديد LMD

الموسم الجامعي

2025/2024

مقدمة

مقدمة

ليس بخاف على أي دارس مدى ارتباط علوم العربية بنزول القرآن الكريم من حيث النشأة ومن حيث التطور أيضا، وإن حرص الأمة على كتابها دفع بعلمائها إلى مسعى الكشف عن آليات التحصين فكانت ثمرة ذلك الجهد أن عرف النحو، كما كانت مدارسة مكامن السر في عدم القدرة على الإتيان بمثل ما هو عليه التعبير القرآني وقد تحداهم لفعل ذلك، فما استطاعوا مع ما عرف عن العرب من القدرة البيانية التي ما عرف لها الناس مثيلا في ذلك الوقت. نعم لقد تأبَّى عليهم الإتيان بمثله، ولقد كانت المكابرة أولا، ثم جاء التسليم.

ذلك الذي دفعهم إلى محاولة الوقوف على مكمن السّر، وفي أيّ النواحي يكمن؟ لقد ذهب كثير من الدارسين إلى اعتبار مثل هذه المواجهة، مواجهة قدرة العرب لتحدي القرآن الكريم لهم هي الإشكالية التي تمثلت الإجابة عنها في كل المفردات التي تأسست عليها نظرية النظم.

لقد أفادت مقاربتنا لمقترحات مقياس نظرية النظم من طبيعة المنهج الوصفي ذي الملمح التاريخي وقد كان القصد من ذلك محاولة تعريف الطلبة في هذا المستوى التعليمي من واحدة من أهم مفردات النقد القديم، والتي قامت بدورها على كثير من المصطلحات التراثية، التي يظل طالب الدراسات اللغوية والأدبية في حاجة إليها، ومعلوم أن استدعاء المعارف التراثية في حاجة إلى وضعها في سياقها التاريخي، وكيف حصل لها التطور عبره.

نعم إنّ النّظم هذا المصطلح الذي تطور منذ ابن المقفع وبشر بن المعتمر والجاحظ والرماني والخطابي وابن قتيبة والباقلاني والقاضي عبد الجبار، هؤلاء وغيرهم كثير، هم الذين كرّسوا هذا المصطلح بديلا جماليا أسلوبيا لتفسير تفوق التعبير القرآني، وكان انتصارهم لطبيعة التأليف التي جاءت عليها لغة القرآن الكريم هي التي صنعت الفارق، وصنعت معه في الوقت ذاته قيمة التحدي حيث عجز العرب، وكان في عجزهم

هذا الاعتراف الذي كان بدوره اليقين الذي حملهم على تحمّل ما تحملوه نصرة لهذا الدين بالذود عنه، والدعوة إليه.

لقد استطاع عبد القاهر الجرجاني بعد أن أفاد من دروس النحو وقواعد العربية، ثم بما حصّل من تراكم معرفي عميق، بكل ما أنتجه العقل العربي مستفيدا مما جادت به الثقافات الوافدة بحكم الاحتكاك والترجمة، وسعيا منه للدفاع عن الفهم المثالي المنتصر لحقائق القرآن الكريم واللغة العربية، جعل نظرية النظم وامتداداتها في مجالي النظر والتطبيق متسلحا بالذوق الجمالي المكين منطلقه في مقاربة لغة القرآن كاشفا مناط الجمالية البلاغية والقدرة على صناعة قيم التأثير.

فكان أن مزج عمق معرفته بالنحو إلى محصلة ما وصله من مفردات البلاغة العربية فكانت نظرية النظم آلية عبد القاهر في ضبط مسائل قدرة لغة القرآن الكريم على التّميز والارتقاء حيث تتقاصر دون بلوغها أعناق أرباب البيان والفصاحة من عرب قريش، ومن غيرهم من الشعراء والكتاب وغيرهم.

وقد استمر عطاء نظرية النظم بما أثاره من اهتمام بعناصر الجمالية، فظل الاهتمام بها مستمرا بالتعديل والإضافة والمناقشة والرد لكنها ظلت أكثر الطروحات تفسيرا لجماليات لغة القرآن، بل أفاد منها النقاد في مسعاهم في المفاضلة بين النصوص الفنية النثرية منها والشعرية، كما كان عليه الحال بعد القاهر وصولا إلى المتأخرين.

لقد حاولت البحوث البلاغية اللغوية تعقب هذا المصطلح وبقية ملحقاته، وقد كان الرأي أن تكتفي أحيانا بالإشارة فقط تاركين المجال لما تثيره مثل هذه المحاضرات من مناقشات تفاعلية، من شأنها الإسهام بيداغوجيا في ترسيخ أبعاد هذه النظرية من ناحية، ومن ناحية أخرى تعمل على إثارة فضول الطلبة لما له علاقة بلغتهم التي أرجو أن تكون مع القرآن الكريم مناط اعتزازهم فيدركون عمليا أن القرآن الكريم كان المسهم الأساس في الدفع بعلوم اللغة عامة والبلاغة على وجه أخص إلى مزيد من الارتقاء الذي رأى

كثير من الدارسين أن نظرية النظم تأتي تتويجا له لما فسرت النحو تفسيرا جماليا، وقد كانت إجاباتها صالحة إلى يوم الناس هذا، وربما عدّ ذلك من أهم إنجازات الموروث النقدي والبلاغي.

ولعله فيما نقدمه في هذه الدروس ما يؤشر على ذلك، سيما ما كان منها متعلقا بتأثير مسعى عبد القاهر في النقاد المحدثين، ثم محاولة الوقوف على مساحات تقاطع مفردات نظرية النظم مع مقولات النقد الحديث والمعاصر.

وثمة تأملات جمة إزاء النظم حالت دون إبدائها طبيعة هذا العمل، الذي نعده فقط لإثارة اهتمام الطلبة لمزيد من بحث تاريخ البلاغة والنقد في موروثنا الثقافي، وإلى أي مدى يمكن أن يمدنا في مستقبلنا الفني والثقافي، وإن ما عرض في مثل هذه الدروس لا يغني الباحث الذي آنس من نفسه الرغبة في التعمق المعرفي لقضايا النقد والبلاغة، بل على العكس من ذلك تماما إنّه المحفز لمزيد من التقصي والبحث.

وفي الختام يمكننا القول أنها محاولة سعت جاهدة وفق ما سمحت به الظروف إلى ترسيخ معطيات نظرية النظم بديلا بلاغيا جماليا لتفسير مسألة الإعجاز في لغة القرآن الكريم من ناحية، ثم محاولة الدفع باتجاه تكريس آليات المقاربة اللغوية لنظرية النظم منصة انطلاق في ضبط القيم الفنية في المفاضلة بين النصوص الفنية عامة، وربما كان ذلك من أجل القول بجدوى ترقية نظرية النظم بديلا نقديا عاما، فقد التقت كثير من محاورها مع مباحث كثيرة مما جاء به النقد الحديث والمعاصر.

والله الموفق

المحاضرات

المحاضرة الأولى: المرجعيات المؤسسة لعلوم البلاغة

مفهوم النظرية:

لغة: نظر (النون والظاء الراء) أصل صحيح يرجع فروعه إلى معنى واحد وهو تأمل الشيء ومعاينته، ثم يستعار ويتسع فيه، فيقال: نظرت إلى الشيء أنظر إليه، إذا عاينته[1]. وقد ورد هذا الفعل في القرآن الكريم، حيث قوله تعالى: ﴿ ثمَّ نَظرَ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَر﴾ المدثر/21،22، ذهب ابن كثير إلى أن معنى نظر في الآية يعني (أعاد النظرة التروي)[2].

اصطلاحا: فهي عند الدراسيين وإن اختلفت من حيث التعبير، إلا أنها تتفق أو تكاد في المضمون، من ذلك ما نجده في مثل هذا التعريف: (النظرية في أي مجال من المجالات تحدد تصورا ذهنيا شموليا تجاه قضية، أو موضوع ما، ويكون للنظرية قوة القاعدة أو القانون حيث يؤكدها التطبيق العملي كما هو الشأن في المسائل العلمية)[3] ، هذا هو المفهوم العام ، أما في مجال المباحث الأدبية فقد أمكن الاستئناس بهذا التعريف الذي أدرجه مجدي وهبة في معجم مصطلحات الأدب حيث يرى أنها: (دراسة تجريدية ترمي إلى استخلاص القواعد العامة وفلسفة المفاهيم والأصول الجمالية التي ينبني عليها النقد من ناحية، وتكون الأساس النظري لدراسة عامة من ناحية أخرى...)[4].

هذا الذي ذكرنا فيما يتعلق بمفهوم النظرية إن في مستواها العام أو عند دارسي الأدب، أما بالنسبة للحديث عن نظرية النظم عند العلماء الذين تعرضوا لبحث السر في إعجاز لغة القرآن الكريم كما سوف نعرف ذلك بإذن الله فيما يستقبلنا من هذه المقاربة خلال المحاضرات التي تشكل مفردات مقياس نظرية النظم ومحاولة وضع ذلك في سياق عام من شأنه التأكيد على أن الذي قدمه الشيخ عبد

---

[1]- أحمد بن فارس (395 هـ) ، معجم مقاييس اللغة، تحقيق: عبد السلام هارون، دار الفكر، سنة: 1979، ص: 444/5.
[2]- ابن كثير، تفسير القرآن الكريم، تحقيق: سامي بن محمد سلامة، دار طيبة للنشر والتوزيع ط 2، سنة 1999، ص: 8/ 260.
[3]- عاطف محمد يونس، مغالطات في النقد الأدبي، المؤسسة الجزائرية للطباعة، سنة: 1990، الجزائر، ص:90.
[4]- مجدي وهبة، معجم مصطلحات الأدب، مكتبة لبنان، (د، ظ)، سنة: 1994، ص: 291.

القاهر الجرجاني في كتابه دلائل الإعجاز يعد حقيقة لا مجازا نظرية متكاملة الأركان إن في مستوى التنظير أو النماذج التطبيقية التي يقدمها باعتبارها براهين تحيل على صدقية ما ذهب إليه ملخصا بذلك ما جادت به قرائح علماء سبقوه إلى هذا التوجه، كما يكون قد قدم لمن جاؤوا بعده. وإن شئنا تأملنا كتمهيد للحديث عن اعتبار النظم عند الجرجاني نظرية مستوفية الأركان ، وقفنا مع د.محمد كاظم البكاء وهو أحد أشهر الدارسين الذين تعرضوا للتنظير لهذه الأخيرة.

حيث اعتبر أنها تستجيب أي ملاحظات عبد القاهر الجرجاني لشروط ما يعرف بالنظرية فذكر محمد كاظم البكاء[1]:

1- **أنها عامة:** أي تنتظم موضوع علم أو عدة علوم. وكذلك النظم عند عبد القاهر الجرجاني الذي يتناول (الكلام) في صحته وفساده، ومزيته وفضله إذ يقول: (لا ترى كلاما قد وصف بصحة نظم أو فساده، أو وصف بمزية فضل فيه، إلا وأنت تجد مرجع تلك الصحة وذلك الفساد وتلك المزية وذلك الفضل إلى معاني النحو وأحكامه ووجدته يدخل في أصل من أصوله ويتصل بباب من أبوابه).[2]

2- **أنها ذات مبدأ:** أي ما يخرج منه سلسلة من القوانين التي تنظم العلاقات وتفسر الظواهر، يذكر بعدها جملة من الشواهد منقولة من دلائل الإعجاز يؤكد فيها صحة هذا الشرط وأنه معتمد من قبل الجرجاني حين قال: (واعلم أن ليس النظم إلا أن تضع كلامك الوضع الذي يقتضيه علم النحو، وتعمل على قوانينه وأصوله)[3] ، وقد استطاع الجرجاني بمهارة فائقة أن يوضح علاقة هذه القوانين ببعضها البعض، أي مبدئية النظم، إذ يقول: (معلوم أن ليس النظم سوى تعليق الكلم ...كما تراها معاني النحو وأحكامه)[4].

---

[1]- ينظر، محمد كاظم البكاء، المدخل النحوي للإعجاز القرآني عند الجرجاني (نظرية النظم)، معهد المخطوطات العربية، سلسلة الأطروحات (5) المهندسين ، القاهرة ط/1 ، سنة: 2021، ص:294 وما بعدها.

[2]- أبو بكر عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز في علم المعاني، تحقيق: محمود محمد شاكر، مطبعة المدني، القاهرة ط 3، سنة: 1992، ص 83.

[3]- المصدر نفسه ص: 81.

[4]- أبو بكر القاهر الجرجاني دلائل الإعجاز في علم المعاني، تحقيق: عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلمية ط 1، بيروت، سنة: 2001، ص:10 .

3- **أنها ذات منهج للتفسير والبحث:** يستشهد بصدقية هذا الشرط المتحقق في مباحث النظم عند الجرجاني بقول هذا الأخير: (اعلم أن سبيلك أولا أن تعلم أن ليس المزية التي تثبتها لهذه الأجناس على الكلام المتروك على ظاهره والمبالغة التي تدعي لها في أنفس المعاني التي يقصد المتكلم إليها بخبره ولكنها في (طريق) إثباتها له وتقريره إياها)[1].

ثم يسجل كاظم البكاء بعد طول تحليل لمختلف مباحث النظم عند الجرجاني ملاحظة مفادها: (أن الجرجاني أدرك أنه في صدر البحث عن نظرية شاملة وإن لم يطلق عليها هذه التسمية لعدم استعمال هذا المصطلح عند معاصريه والظهار أنهم عمدوا إلى استخدام مصطلح (الأصول) للتعبير عن ما يقع بمستوى النظرية...يقرنه ب (النظم) للتعبير عن نظريته إذ يقول في المدخل في دلائل الإعجاز : (هذا كلام وجيز يطلع به الناظر على (أصول النحو) جملة، وكل ما يكون به (النظم) دفعة)[2].

لغة القرآن الكريم ومواقف العرب:

حفت لغة القرآن الكريم بحشد غير قليل من قيم التأثير في المتلقين، انسجاما مع طبيعة التأييد الذي تلقاه النبي محمد صل الله عليه وسلم تصديقا لدعوته، فقد كانت العرب وما في الدنيا من في بيانها وفصاحتها وصف عتبة بن أبي سفيان كلامهم فقال: "إنّ للعرب كلاما هو أرق من الهواء، وأعذب من الماء، مرق من أفواههم مروق السّهام من قسييها بكلمات مؤلفات، إن فسّرت بغيرها عطلت وأن بدّلت بسواها من الكلام استصعبت، فسهولة ألفاظهم توهمك أنها ممكنة، إذا سمعت، وصعوبتها تعلمك أنها مفقودة إذا طلبت"[3].

---

[1]- دلائل الإعجاز ، ص 71.

[2]- أبو بكر القاهر الجرجاني دلائل الإعجاز في علم المعاني، تحقيق: عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلمية ط 1، سنة: 2001، ص:07.

[3]- الحصري، زهرة الآداب، نقلا عن محمود السيد شيخون، الإعجاز في نظم القرآن ط/1، القاهرة، مصر، سنة: 1978، الناشر: مكتبة الكليات الأزهرية، ص: 3.

ومع ما كانت عليه العرب من هذه الصفات التي أبان القرآن الكريم: "وقد صوّر الذكر الحكيم ذلك في غير موضع منه من مثل: ﴿الرّحمن علّم القُرآن خلقَ الإنسان علّمهُ البيَان﴾ الرحمن/1-3، ﴿وإن يقولوا تسمع لقولهم﴾المنافقون/4،﴿ومنَ النَّاسِ من يَّعجبكَ قولهُ في الحَياةِ الدُّنيَا﴾ البقرة/204، كما صور شدة عارضتهم وقوتهم في الحجاج والجدل بمثل: ﴿فإذَا ذَهبَ الخَوفُ سَلَقُوكُم بِألسِنةٍ حِدَادٍ﴾ الأحزاب/19، ﴿وَمَا ضَربُوهُ لكَ إِلَّا جَدَلا بَلْ هُم قَومٌ خَصِمُونَ﴾ الزخرف/58"[1]، إلا أنّ إجماعا حصل مفاده أنه: "لا خلاف بين أهل العلم أن التعبير القرآني تعبير فريد في علوّه وسموّه وأنه أعلى وأرفعه، وأنه بهر العرب فلم يستطيعوا مداناته والإتيان بمثله مع أنه تحدّاهم أكثر من مرة"[2].

لقد حدا أمر تأثير لغة القرآن الكريم لفرط ما فيها من قوة على الإبلاغ بطواغيت الوثنية من قريش إلى محاولة قطع الصلة بين هذا القرآن وبين الناس مخافة عليهم مما وجدوه من كبير هذا التأثير، فحذروهم من الإصغاء إلى ما نزل على محمد صلى الله عليه وسلم فـ: "من الثابت أن القرآن الكريم كان يأخذهم بروعة بيانه وأنهم لا يملكون أنفسهم عن سماعه، ولذلك سعوا إلى أن يحولوا بين القرآن وأسماع النّاس سعوا إلى أن لا يصل إلى الآذان، لأنهم يعلمون أن مجرد وصوله إلى السمع يحدث في النفس دويّا هائلا وهزة عنيفة"[3]. وقد حكى الله عزّ وجلّ صنيعهم هذا فقال: ﴿وَقالَ الذينَ كفرُوا لاَ تَسْمعُوا لهذَا القُرآنِ وَالْغَوْا فيهِ لَعلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ فصلت/26.

يذكر **ابن عاشور** في معاني هذه الآيات أن: "الذين كفروا هنا هم أيمة الكفر، يقولون لعامتهم لا تسمعوا لهذا القرآن، فإنهم علموا أنّ هذا القرآن كلام هو أكمل الكلام شريف معان وبلاغة وتراكيب وفصاحة

[1]- شوقي ضيف، البلاغة تطور وتاريخ، دار المعارف، ط/9، القاهرة، مصر، سنة: 1965، ص: 9.
[2]- سامي محمد هشام حريز، نظرات من الإعجاز البياني في القرآن الكريم نظريا وتطبيقيا، دار الشروق، عمان، الأردن، سنة: 2006، ص: 17.
[3]- السامرائي فاضل صالح، بلاغة الكلمة في التعبير القرآني، شركة العاتك لصناعة الكتاب للطباعة والنشر والتوزيع، ط/2، القاهرة، مصر، سنة: 2006، ص: 9.

ألفاظ، وأيقنوا أنّ كل من سمعه وتداخل نفسه جزالة ألفاظه وسموا أغراضه، قضى له فهمه أنه حق اتباعه... فتمالؤوا ودبروا تدبيرا لمنع الناس من سماعه... فصرفوهم عن سماعه"[1].

كما أظهرت الدّروس المستفادة من السّيرة النّبوية الشّريفة مقدار ذلك التأثير في صور ومواقف شتى، لو ترك الناس أحرارا في تعاملهم مع القرآن الكريم من خلال قدرة لغته المعجزة العجيبة، من ذلك ما نجده في قصة عمر رضي الله عنه، حيث خرج مساء يوم متوشحا سيفه يريد رسول الله صلى الله عليه وسلم ورهطا من أصحابه، في مكان عند الصفا، سمع أنهم يجتمعون فيه فلقيه في الطريق من سأله: أين تريد يا عمر؟ أجاب: أريد محمد هذا الصابئ الذي فرّق أمر قريش... فأقتله، فقال له صاحبه: عزّت نفسك يا عمر؟ أترى بني عبد مناف تاركيك تمشي على الأرض وقد قتلت محمدا؟ أفلا ترجع إلى أهل بيتك فتقيم أمرهم؟ سأله عمر، وقد رابه ما سمع: أي أهل بيت تعني؟ فأخبره أن صهره وابن عمه سعيد بن زيد بن نفيل قد أسلم، وكذلك زوجته فاطمة أخت عمر بنت الخطاب، فأخذ عمر طريقه إلى بيت صهره مستثار الغضب يريد أن يقتله ويقتل زوجته فاطمة فما كاد يدنو من الباب حتى سمع تلاوة خافتة لآيات من سورة طه، فدخل يلح بطلب الصحيفة التي لمح أخته تخفيها عند دخوله... فما كان منه إلا قال: "فلما سمعت القرآن رقّ قلبي وبكيت، ودخلني الإسلام..."[2].

كما يمكن النظر[3] في مثل هذه المواقف من تلقي القرآن الكريم، وفاعلية عطاءاته الأسلوبية، في قصة سفير رسول الله صلى الله عليه وسلم مصعب بن عمير رضي الله عنه إلى المدنية، وكيف كان القرآن بما لديه من قدرات بلاغية و إبلاغية على استمالة الناس للإسلام، وإن طبيعة تلقي العرب للقرآن الكريم متأثرين بلغته متى كانوا أحرارا، إنما هي محمدة تحسب لهم ذلك أنهم أفصحوا عن كفاءة معتبرة كبيرة في تميز الأساليب، وأن مثل لغة القرآن الكريم، وطريقة نظمه، إنما تحصل فقط من الله تبارك وتعالى، فيدفعهم كلام الله بما

[1]ـابن عاشور محمد الطاهر، التحرير والتنوير، الدار التونسية للنشر، سنة: 1984 تونس الجمهورية التونسية، ص: 277/24.
[2]ـحنفي محمد شرف، إعجاز القرآن البياني بين النظرية والتطبيق، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، الكتاب الرابع، الجمهورية العربية المتحدة، سنة: 1970، ص: 256.
[3]ـ التميمي ابن حبان محمد، السيرة النبوية وأخبار الخلفاء لابن حيان، صححه وعلق عليه: الحافظ السيد عزيز بك وجماعة من العلماء، ط/3، بيروت، لبنان، الكتب الثقافية سنة: 1417هـ، ص: 109/1.

احتواه من الإعجاز البياني على التفريق بينه وبين قول البشر، روى ابن أبي إسحاق في السيرة أن سفيان بن حرب، وأبا جهل بن هشام المخزومي، والأخنس بن شرق الزهري خرجوا ذات ليلة إلى حيث يستمعون من الرسول صلى الله عليه وسلم وهو يصلي ويتلو القرآن الكريم في بيته، فأخذ كل رجل منهم مجلسا يستمع فيه، ولا أحد كان يعلم بمكان صاحبيه، فباتوا يستمعون له حتى إذا طلع الفجر تفرقوا فجمعهم الطريق فتلاوموا وقال بعضهم لبعض: فلو رآكم بعض سفهائكم لأوقعتم في نفسه شيئا ثم انصرفوا، حتى إذا كانت الليلة التالية، عاد كل منهم إلى مجلسه لا يدري بمكان صاحبيه، فباتوا يستمعون للمصطفى حتى طلع الفجر فتفرقوا وجمعهم الطريق فتلاوموا وانصرفوا على ألاّ يعودوا"[1].

وبالنظر فيما نجده عند الوليد ما يدل على قدرة التعبير القرآني في إحداث الاستجابة المتوقعة، فقد اجتمع إليه – الوليد بن المغيرة– نفر من قريش ليجمعوا على رأي واحد يقولونه للناس في الموسم فقال بعضهم: شاعر، وقال بعضهم: كاهن، وقال بعضهم: مجنون، فكان يرد هذه الأقوال ويفندها ثم قال: فماذا أقول فيه؟ فوالله ما منكم من رجل أعلم مني بالشعر ولا برجزه ولا بقصيده ولا بأشعار الجن، والله ما يشبه الذي يقول شيئا من هذا، والله: إن لقوله لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإنه ليحطم ما تحته، وإنه ليعلو وما يعلى، قال أبو جهل: والله لا يرضى قومك حتى تقول فيه، قال: فدعني أفكر فيه، فلما فكر قال: إن هذا إلا سحر يؤثر، أما رأيتموه يفرق بين الرجل وأهله ومواليه! فتفرقوا عنه بذلك"[2]، فأنزل الله فيه قوله ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا وَجَعَلتُ لَهُ مَالاً مَّمْدُودًا وبَنِينَ شُهُودًا وَمَهَّدْتُ لهُ تَمهِيدًا ثُمّ يَطْمعُ أَنَ اَزِيدَ كَلاَّ إنّهُ كَانَ لآياتِنَا عَنيدًا سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا إنّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ثُمّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ثُمّ نَظَرَ ثُم عَبَسَ وَبَسَر ثُم أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلّا سِحْرٌ يُوثَرْ إِنْ هَذَا إِلّا قَوْلُ الْبَشَرِ﴾المدثر/11–25.

يعلق **سيد قطب** على خبر القصتين، قصة إسلام عمر رضي الله عنه، وإعراض الوليد بن المغيرة بعد سماعهما القرآن الكريم، مع اختلاف الموقفين، إلاّ أنه في الحالتين كشف عن مدى ما يملكه القرآن الكريم

[1]- ابن هشام عبد الملك، السيرة النبوية لابن هشام، ط/2، تحقيق: مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ الشلبي، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي القاهرة، مصر سنة: 1955، ص: 315/1.
[2]- المصدر نفسه، ص: 271/1.

من أسباب صناعة التعبير المؤثر المدهش الذي لا قبل للعرب به فيأخذ بذلك منهم جماع أحاسيسهم ومشاعرهم، يقول: "وقصة إيمان عمر بن الخطاب وتولي الوليد بن المغيرة، نموذجان من قصص كثيرة للإيمان والتولّي وكلتاهما تكشفان عن هذا السحر القرآني الذي أخذ العرب منذ اللحظة الأولى وتبيان في اتجاهين مختلفين عن مدى هذا السحر القاهر، الذي يستوي في الإقرار به المؤمنون والكافرون"[1]. نعم كان ذلك التأثير في جيل من العرب بلغ في البيان شأوا عظيما إنه: "الجيل الذي نزل فيه القرآن، كان قد بلغ في القدرة على الإبانة عن نفسه حدّا لم يبلغه جيل من أجيال الأمة في تاريخها كله"[2].

لغة القرآن الكريم والإعجاز:

الإعجاز لغة: هو الضعف، و"عجز الشيء عجزا، فهو عاجز أي ضعيف"[3]، "ويقولون المرء يعجز لا محالة، ويقال: أعجز فلان، إذ عجز عن طلبه وإدراكه"[4]، وقد ذكر أنّ معاني العجز: "تدور على الضعف والانقطاع وعدم القدرة على تحصيل الشيء"[5].

الإعجاز اصطلاحا: مصدر الفعل الرباعي " أعجز" وفيه معنى الفوت والسبق ويطلق على الفائز السابق لخصمه الذي جعل خصمه عاجزا عن إدراكه، لذلك يقول الخصم المغلوب العاجز: أعجزني فلان إعجازا، وهذا هو المعنى الاصطلاحي للإعجاز متحقق في مصطلح "إعجاز القرآن"، وهو عدم قدرة الكافرين على معارضة القرآن وقصورهم عن الإتيان بمثله، رغم توفر ملكتهم البيانية، وقيام الدّاعي على ذلك، وهو استمرار تحدّيهم، وتقرير عجزهم عن ذلك"[6].

---

[1]- سيد قطب، التصوير الفني في القرآن، دار الشروق، ط/16، القاهرة، مصر، سنة: 2002، ص:11.
[2]- أبو موسى محمد، الإعجاز البلاغي، مكتبة وهبة، القاهرة، مصر، سنة: 1997، ص: 15.
[3]- ابن فارس أبو الحسين أحمد، مقاييس اللغة، تحقيق عبد السلام هارون، دار الفكر سنة: 1979، ص: 232/4.
[4]- المصدر نفسه، ص: 232/4.
[5]- السيوطي أبو الفضل جلال الدين عبد الرحمن، معترك الأقران في إعجاز القرآن ضبطه وصححه شمس الدين، دار الكتب العلمية، ط/1، سنة: 1988، ص: 26/1.
[6]- الخالدي صلاح عبد الفتاح، إعجاز القرآن البياني ودلائل مصدره الرباني، دار عمار للنشر والتوزيع، الأردن، ط/1، سنة: 2000، ص: 16/15.

وقد حدّ الإمام **السيوطي** المعجزة من حيث الاصطلاح بما يفيد مسعى هذا البحث، وذلك حينما يعلق المعجزة على قيمة تجاوز المألوف مع التحدي وربما ذلك ما نلمسه في لغة القرآن الكريم، وفي مدى تحديها للعرب منها، يقول بأنها: "أمر خارق للعادة، مقرون بالتحدي، سالم من المعارضة"[1]، وربما كان **الخطابي** سباقا لإقرار هذا المعنى لما ذكر أنه: "ليس ينظر في المعجزة إلى عظم حجم ما يأتي به النبي ولا إلى فخامة منظره، وإنما تعتبر صحتها بأن تكون أمرا خارجا عن مجاري العادات ناقضا لها"[2]، وبذلك يكون التحدي الذي تعد طبيعته البيانية "من أكبر الدلالة على ما حذقوه من حسن البيان أن كانت معجزة الرسول الكريم وحجته القاطعة لهم أن دعا أقصاهم وأدناهم إلى معارضة القرآن في بلاغته الباهرة، وهي دعوة تدل في وضوح على ما أتوه من اللَّسَن والفصاحة والقدرة على حوك الكلام كما تدل على بصرهم بتمييز أقدار الألفاظ والمعاني..."[3].

الإعجاز الوسيلة والغاية:

ليس أمر إعجاز القرآن الكريم للعرب بعد أن تحداهم أمرا مقصودا لذاته، إنما مبلغ الأمر كما يفصح عن ذلك **الزرقاني** ملخصا بصورة دقيقة هذه المسألة فيقول مستدركا: "ولكنّ التّعبير المذكور ليس مقصودا لذاته بل المقصود لازمه وهو إظهار أنّ هذا الكتاب حق، وأنّ الرسول الذي جاء به صدق، وكذلك الشأن في معجزات الأنبياء، ليس المقصود بها تعجيز الخلق لذات التعجيز، ولكن للازمه وهو دلالتها على أنهم صادقون فيما يبلغون عن الله، فينتقل الناس من الشعور بعجزهم إزاء المعجزات، إلى شعورهم وإيمانهم بأنها صادرة عن الإله القادر، لحكمة عالية، وهي إرشادهم إلى تصديق من جاء بها ليسعدوا باتباعه في الدنيا والآخرة"[4]. فالغاية المرجوة إذا حثّ الناس كل الناس على الإيمان برسالة المصطفى ومن

---

[1]- السيوطي أبو الفضل جلال الدين عبد الرحمن، الإتقان في علوم القرآن، تحقيق: مركز الدراسات القرآنية، المدينة المنورة، السعودية، مجمع فهد لطابعة المصحف الشريف سنة: 1426هـ، ص:116/2.

[2]- الخطابي أبو سليمان بن محمد بن الخطاب، بيان القرآن، ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، تحققها وعلق عليها: محمد خلف ومحمد زغلول سلامة، دار المعارف ط/3، القاهرة، مصر، سنة: 1976، ص: 23.

[3]- شوقي ضيف، البلاغة تطور وتاريخ، ص: 9.

[4]- الزرقاني محمد عبد العظيم، مناهل العرفان في علوم القرآن، حققه واعتنى به: فواز أحمد زمرلي، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، سنة: 1995، ص: 259.

ثمة الفوز برضا رب الناس، وأن ذلك إنما يتأتى للمعاندين عند مبلغ الغاية من الإنكار، فيكون استفراغهم من حاجات نفسية كانت تلح عليهم من أجل الجحود، فيحررهم العجز منها، ويستيقنوا أن القرآن الكريم الذي نزل بذات اللغة التي يستعملون ومع ذلك وهم أمة الإفصاح لم يكن في مقدورهم الإتيان بمثله.

الآيات التي تحدّت العرب:

لما أبانت فئة من الكافرين عن عدم الاستجابة لدعوة الهدى، وأعلنت كفرها، وادّعت أن هذا الحق المبين هو من نسج النبي، وإن هو إلا سحر وأساطير، وكان اتهامها الرسول صلى الله عليه وسلم باختراع هذا ونفت نسبته الإلهية، فلما صار الأمر لديهم على هذا الادعاء والزعم، يكون في استطاعتهم مجاراة أسلوب القرآن والنسج على منواله، فأنزل الله سبحانه وتعالى آيات كريمات تطلب من الكفار أن يأتوا بمثله أو ببعضه، وقد جاءت هذه الآيات في أزمنة مختلفة إمعانا في ذلك التحدي، "وقد تدرجت هذه الآيات الكريمة بالكافرين، فطالبتهم بالإتيان بمثل القرآن العظيم الإلهي من الأكثر إلى الأقل، مبالغة في الإعذار وإمعانا في الإعجاز"[1].وقد كان منهجا شديد الإحكام يمعن به القرآن الكريم في: "تحدي العرب بما يستدعيه المنطق من التحدي بالأصعب فالأسهل"[2].

وهذه الآيات حسب ترتيب نزولها:

1- قوله تعالى ﴿قُلْ لَئِن اجْتَمَعَتِ الِانسُ والجِنُّ عَلىَ أَن يَاتُوا بِمِثْل هذَا القُرآنِ لاَيَاتُونَ بِمِثلهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُم لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾، الإسراء/88.

2- وقوله تعالى ﴿فَلْيَاتوُا بِحَديثٍ مِثلهِ إِنْ كَانُواْ صَادِقِينَ﴾، الطور/34.

[1]- ابن عقيل موسى محمد بن حسن، إعجاز القرآن الكريم بين الإمام السيوطي والعلماء دراسة نقدية مقارنة، الأندلس الخضراء للنشر والتوزيع، ط/1، سنة: 1997، جدة السعودية، ص: 55/54.

[2]- الحمصي نعيم، فكرة إعجاز القرآن –منذ البعثة المحمدية حتى عصرنا الحاضر- نقد وتعليق، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، ط/1، سنة: 1980، ص: 22.

3- ثم قال تعالى ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَاتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾، هود/13.

4- ثم قال تعالى ﴿أَمْ يَقُولُونِ افْتَرَاهُ قُلْ فَاتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِن دُونِ اللهِ إِنْ كُنْتُم صَادِقِينَ﴾ يونس/38.

5- ثم قال تعالى ﴿وَإِنْ كُنْتُم فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنِا عَلىَ عَبْدِنَا فَاتُوا بِسُورَةٍ مِن مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللهِ إِنْ كُنْتُم صَادِقِينَ﴾، البقرة/23

ويتضح في النص القرآني الذي تلا التحدي الأخير أن الله عزّ وجلّ حسم هذه القضية حين قال ﴿فَإِن لَمَ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا﴾ البقرة/24، وقد كان هذا حسم من القرآن الكريم يعجز العرب حاضرا ومستقبلا عن الإتيان بمثل القرآن الكريم "وتحقق هذا العجز فعلا يعد ذلك الدليل على مصدر القرآن فلو كان كلام الرسول صلى الله عليه وسلم لما جزم هذا الجزم"[1].

وفي ختام هذه الوقفة نسجل أن العناصر التي بنيت عليها تقود إلى طرح سؤال مركب يرتبط بمسألة الإعجاز سيما في شقها المتعلق باللغة ومختلف أوجه البيان المعبر بها، ثم كيف كان هذا الإعجاز مع معرفة ما للعرب من مقدرات في مجال البيان والإفصاح والبلاغة؟ ثم إن طبيعة هذا الإعجاز البياني، تقوم على ذات العناصر اللغوية التي قامت عليها لغة العرب وقد كانوا بشهادة القرآن الكريم أفذاذ في هذا المجال، أنها أسئلة تفترق منهجيا غير أنها تنتهي في المصب نفسه، وهو محاولة البحث عن السر في إعجاز التعبير القرآني وربما تكفلت المحاور التي تستقبلنا في هذا البحث بمحاولة إضاءة ذلك، علما بأنّ الأمر يحتاج إلى مزيد من المتابعة، وأن ما نقدمه لا يعدو أن يكون مما يسترشد به فحسب، وربما وجدنا أمر صعوبة ضبط موضع الإعجاز في إشارة لدى أبي حيان التوحيدي عندما سئل عن ذلك، فقال: "هذه مسألة فيها حيف على المفتي وذلك أنه شبيه بقولك: ما موضع الإنسان من الإنسان؟ بل متى أشرت إلى جملته فقد

[1]- الخالدي صلاح عبد الفتاح، إعجاز القرآن البياني ودلائل مصدره الرباني، دار عمار للنشر والتوزيع، الأردن، ط/1، سنة: 2000، ص: 10.

حققته ودللت على ذاته كذلك القرآن لشرفه لا يشار إلى شيء منه، إلا وكان ذلك المعنى آية في نفسه، ومعجزة لمحاوله، وهدى لقائله، وليس في طاقة البشر الإحاطة بأغراض الله في كلامه وأسراره في كتابه..."[1].

ولإن دلّ هذا الشاهد على مدى ما في محاولة بحث قضية الإعجاز مطلقا من صعوبة، إلا أن أمرا يمكن أن يهون قليلا من هذه الصعوبة أنه ثمة شبه إجماع على أن أمر الإعجاز الذي كان تحدي العرب، إنما كان مقابلا لأمر كان لهم فيه قصب السبق دون غيرهم، ذلك الأمر هو القدرة الماسكة بفن القول والتمكن فيه تلك عادة تأييد المولى تبارك وتعالى لرسله إذ تكون المعجزة بحسب ما كان التفوق فيه لأقوامهم، فتصير دلالة التعجيز أبلغ أثرا، وهذه المسألة صارت من المعارف الأساسية التي يبررها تاريخ الرسل صلوات الله عليهم في دعوتهم لأقوامهم.

الإعجاز والبلاغة:

لقد كانت مباحث الإعجاز القرآني نعم الحافز الذي أدى إلى ظهور مفردات علم البلاغة عامة ومحاولة بحث سرّ هذا الإعجاز خاصة، حيث يصار إلى القول بمسألة النظم تبيانا لذلك الإعجاز. وقد كان بحث نشأة البلاغة يمر بصفة مباشرة من هذا المسلك، يقول أحد الدارسين وهو بصدد التأريخ لنشأة البلاغة وتطورها أنه: "كان لزاما علينا أن نعرض جملة التطور لقضية الإعجاز القرآني، وما أثارته من دراسات بلاغية كان لها أعظم الأثر في تناول الآيات القرآنية، واستنباط القوانين الجمالية، مما دفع بالبلاغة وقوانينها أشواطا بعيدة نحو النضج والرقي"[2].

بل صار الإنسان مدفوعا بمعرفة قضايا الإعجاز في التعبير القرآني مرهون الفهم إذا لم يتحكم في مفردات البلاغة باعتبارها آليات للفهم، يقول **العسكري**: "قد علمنا أن الإنسان إذا أغفل علم البلاغة، وأخل

[1]- السيوطي أبو الفضل جلال الدين عبد الرحمن، الإتقان في علوم القرآن، ص: 1888/5.

[2]- عبد القادر حسين، المختصر في تاريخ البلاغة، دار غريب، القاهرة، مصر، سنة: 2001، ص:5.

بمعرفة الفصاحة لم يقع علمه بإعجاز القرآن الكريم من جهة ما خصّه الله به من سنن التأليف، وبراعة التركيب وما شحنه به من الإيجاز البديع، والاختصار اللطيف، وضمنه من الحلاوة، وجلله من رونق الطلاوة، مع سهولة كلمه وجزالتها وعذوبتها وسلاستها إلى غير ذلك من محاسنه التي عجز الخلق عنها"[1].

فليس بخاف كيف لعبت طبيعة التعبير القرآني دورا حاسما في حث خطى علمائنا الأوائل في الذهاب بعيدا في تملّي هذا التعبير بحثا عن قيم الأسلوب المتفردة التي خصّ بها الله سبحانه كلامه تحقيقا لمسألة تحدي العرب للتسليم بصدقية رسالة النبي محمد صلى الله عليه وسلم كما مرّ بنا ذلك.

وقد كانت مسائل بحث سر الإعجاز محاولة الإجابة على جملة من الأسئلة منها: إذا كان القرآن الكريم مستخدما ذات اللغة التي كانت تستخدم العرب من حيث الألفاظ والبنيات، ففيم حصول هذا العجز عن الإتيان بمثله؟

لقد تعددت منطلقات الإجابة على هذا الاستفهام: "فمن قائل*:

- إن سبب الإعجاز هو ما فيه من تنبّؤ بأشياء سوف تحدث في المستقبل، ثم وقعت بالفعل يدل على أنه ليس من صنع البشر.
- ومنهم من رأى أن سبب الإعجاز، هو الحديث عن التاريخ القديم، والرسول صلى الله عليه وسلم لا يقرأ ولا يكتب...
- ورأت طائفة ثالثة أن سبب الإعجاز هو أن الله صرف العرب أن يأتوا بمثله، وإن كان في قدرتهم الإتيان بمثله؟

[1]- العسكري أبو هلال الحسن، الصناعتين، تحقيق: علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، بيروت، لبنان، سنة: 1419هـ، ص: 1.

- ثم يسجل **عبد القادر حسين** بعد هذا الاستعراض الموجز: "أن معظم الباحثين وأهل النظر رأوا أن سبب الإعجاز إنما يرجع إلى ما فيه من بلاغة ساحرة، وأسلوب فريد، وتأثير عميق..."[1].

تظهر صدقية هذه الملحوظة النافذة إلى حيث السبب المستديم العابرة لمختلف مستويات الإعجاز وعلى امتداد القرآن الكريم كلّه، وهي التي صادفت القبول لدى الأغلب الأعم من علمائنا، سواء ما كان منهم في القديم أو الحديث وفيما يلي بيان ذلك

عند المتقدمين:

يذكر **الرماني** محاولا تحسّس مكمن الإعجاز في لغة القرآن الكريم: "...ونقض العادة هو أن العادة كانت جارية بصروف من أنواع الكلام معروفة، منها: الشعر، ومنها السجع، ومنها الخطب، ومنها الرسائل ومنها المنثور الذي يدور بين الناس في الحديث، فأتى القرآن بطريقة مفردة خارجة عن العادة، لها منزلة في الحسن تفوق به كل طريقة"[2].

وقال **الخطابي** متحدثا عن قيم التعبير القرآني: "فانتظم لها بامتزاج هذه الأوصاف نمط من الكلام يجمع صفتي الفخامة والعذوبة، وهما على الانفراد في نعومتهما كالمتضادين لأن العذوبة نتاج السهولة والجزالة والمتانة تعالجان نوعا من الوعورة، فكان اجتماع الأمرين في نظمه من مع نبوّ كل واحد منهما على الآخر فضيلة خُصّ بها القرآن"[3].

في الشاهد إضافة إلى المرجو من السّياق الذي ورد فيه حديث عن الخصوصية في بنية لغة القرآن من ناحية، ثم ربط ذلك بمفهوم ربما كانت الحاجة إليها ماسة فيما يستقبلنا من هذا البحث في معالجة قضية النظم وفي ذات الاتجاه حيث الانتصار للجانب البلاغي في الإعجاز، يقول **الباقلاني**: "إنّ نظم القرآن

*ينظر المختصر في تاريخ البلاغة، ص: 20، 21.

[1]- المرجع نفسه، ص: 22.

[2]- الرماني علي بن عيسى، النكت في إعجاز القرآن، ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، سلسلة ذخائر العرب (16)، حققها وعلق عليها: محمد خلف الله ومحمد زغلول سلامة، دار المعارف، ط/3، القاهرة، مصر، سنة: 1976، ص: 111.

[3]- الخطابي أبو سليمان بن محمد بن الخطاب ، بيان إعجاز القرآن، ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، سلسلة ذخائر العرب (16)، حققها وعلق عليها: محمد خلف ومحمد زغلول سلامة، دار المعارف ط/3، القاهرة، مصر، سنة: 1976، ص: 28.

على تصرّف وجوهه، وتباين مذاهبه، خارج عن المعهود من نظام جميع كلامهم، ومباين للمألوف من ترتيب خطابهم وله أسلوب يختص به، ويتميز في تصرفه عن أساليب الكلام المعتاد"[1]، وذكر: "أنّه ليس للعرب كلام مشتمل على هذه الفصاحة والغرابة والتّصرف البديع، والمعاني اللطيفة، والفوائد الغزيرة، والحكم الكثيرة، والتناسب في البلاغة والتشابه في البراعة، على هذا الطول، وعلى هذا المقدار"[2].

ويقول **السيوطي** في هذا الشأن: "فأما شأن نظم القرآن فليس له مثال يحتذى عليه ولا إمام يقتدى به ولا يصح وقوع مثله اتفاقا"[3]، وينقل **السيوطي** عن **القاضي عياض** من "الشفاء" عن أوجه إعجاز القرآن الكريم فيذكر: "أولها: حسن تأليفه والتئام كلمه وفصاحته ووجوه إيجازه وبلاغته الخارقة عادة العرب الذين هم فرسان الكلام وأرباب هذا الشأن، الثاني: صورة نظمه العجيب والأسلوب الغريب المخالف لأساليب كلام العرب ومنهاج نظمها... لم تقدر العرب على الإتيان بواحدة منها..."[4].

ولا نستطيع مغادرة التراث في الانتصار لمسألة الإعجاز البياني للقرآن الكريم دون أن نعرّج على الإمام **عبد القاهر**، وإن وقفتنا بعد ذلك ستطول معه، إذ يرى في هذا المضمار حيث يظهر عجز العرب أمة البيان أمام تحدي القرآن لهم للإتيان بمثله: "أعجزتهم مزايا ظهرت لهم في نظمه وخصائص صادفوها في سياق لفظه، وبدائع راعتهم من مبادئ آيه ومقاطعها، ومجاري ألفاظها ومواقعها... وبهرهم أنهم تأملوه سورة سورة، وعشراً عشراً، وآية آية، فلم يجدوا في الجميع كلمة ينبو بها مكانها، ولفظة يُذكر شأنها، أو يُرى أن غيرها أصلح هناك أو أشبه، أو أحرى وأخلق، بل وجدوا اتساقا بهر العقول، وأعجز الجمهور، ونظاما والتئاما وإحكاما، لم يدع في نفس بليغ منهم، ولو حكّ بيافوحه السماء، موضع طمع، حتى خرست الألسن عن أن تدعي وتقول وحذيت القروم فلم تملك أن تصول..."[5].

---

[1]- الباقلاني أبو بكر، إعجاز القرآن، تحقيق: السيد أحمد صقر، دار المعارف، القاهرة مصر، ط/5، سنة: 1997، ص: 69.
[2]- المصدر نفسه، ص: 70.
[3]- السيوطي أبو الفضل جلال الدين عبد الرحمن، الإتقان في علوم القرآن، الهيئة المصرية العامة للكتاب، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، القاهرة، مصر، سنة: 1974، ص: 9/4.
[4]-المصدر نفسه، ص: 18/4.
[5]-الجرجاني أبو بكر عبد القاهر، دلائل الإعجاز في علم المعاني، تحقيق: محمود محمد شاكر، مطبعة المدني، القاهرة، مصر، ط/3، سنة: 1992، ص: 39.

إن الحديث عن طبيعة الإعجاز وارتباطه بالجانب البلاغي الجمالي أكبر من أن يحيط به الحصر عند المتقدمين، وذلك لارتباط مباحث الأولين بعلوم اللغة عامة، والبلاغة بصورة خاصة، وقد رأيت ذلك على سبيل المثال فيما أنجزه المفسرون والفقهاء والمتكلمة والفلاسفة، وربما لهذا الأمر ولغيره ارتأينا الاكتفاء بما قدمنا، وقد يظهر ذلك أكثر جلاء في مباحث النظم التي سوف نعالجها في مقاربتنا إن شاء الله.

ولقد كان من المفيد أن نعرج على هذه المسألة عند المتأخرين حتى يتوازن هذا المطلب.

عند المتأخرين:

لا نريد لوقفتنا هذه أن تطول، إنما نعرض بحسب المقتضى المنهجي بعض الآراء التي منها:

يربط **عبد الكريم الخطيب** بين الإعجاز القرآني ومسألة النظم، علمًا أن مباحث النظم كما سوف نرى هي المحصلة العامة لمختلف التطبيقات الإجرائية لقضايا البلاغة وامتداداتها الجمالية، يقول: "إنه الذوق الوجداني لجمال الكلام، وروعة النّظم، هو الذي يكشف بعض الإعجاز القرآني... وأن الذي يبحث عن الإعجاز من غير أن يستصحب هذا الذوق لن يجد بينه وبين القرآن الكريم طريقا يصل منه إلى ما فيه من آيات الإعجاز ودلائله"[1].

وفي ذات التّوجه يرى **فاضل السّامرائي** أنّ "أسرار البيان التي لا تنتهي في القرآن ولا ينقضي منها العجب، وكلّما أمعنت النظر وأعملت الفكر ازددت يقينا وبصيرة أن هذا القرآن لا يمكن أن يكون إلا تنزيلا ممن خلق الأرض والسموات العلى"[2].

ويربط **أحمد ياسوف** بين الإعجاز في البنية الأسلوبية الأخّاذة وبين مضامين الهداية، وهو نعم الحديث، حديث البنيات اللغوية الجمالية ذات المنزع الوظيفي، فجمال الأسلوب القرآني عنده: "متكامل من حيث الانسجام بين الشكل والمضمون فيه، وهو لا يقدم شكلا فارغا، بل إن ما فيه مسخر في نهاية الأمر لرفع

[1]- الخطيب عبد الكريم، الإعجاز في دراسات السابقين، دار الفكر، ط/1، سنة: 1974 ص: 279.
[2]- السامرائي فاضل صالح ، من أسرار البيان القرآني، دار الفكر، ط/1، سنة: 2009 ص: 5.

مستوى الوعي الجمالي، ومن ثمّ لتحقيق الهداية، ومن يقرأ آياته كأن الشكل يحتوي المضمون ويتحدى به، بحيث لا ينفصمان، وما الإعجاز البياني إلاّ الشّكل الراقي لدعوة البشر إلى حق"[1].

في ملاحقة أولوية الإعجاز البياني دائما يفيد **الخالدي** أن الإعجاز يرتبط بشكل مباشر بمثالية استخدام اللغة إذ "لم يطلب الله من الكفار أن يأتوا بعلم كالعلم الذي في القرآن... وإنما طلب منهم الإتيان ببيان كالبيان الذي في القرآن، ولو كان المعنى مكذوبا مفترى. وهذا صريح في قوله تعالى ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مُفْتَرَيَاتٍ﴾ أي: فأتوا بعشر سور مفتريات في المعنى والمضمون، لكنها مثل القرآن في البيان والبلاغة، لو كان مناط التحدي هو "الصدق التاريخي" في القصص والإخبار لم قال في الآية "مفتريات"، لقد أعطى القرآن العرب الكفار –عندما تحداهم– من العلوم والأخبار والغيوب والتشريعات وطالبهم بالبيان والبلاغة والتعبير"[2].

وفي قراءة لذات المعنى وهو أكثر وضوحا يقول **المطغني**: "لكن الإعجاز الذي وقع به التحدي في عصر الرسالة لم يكن إعجازا علميا وتشريعيا، أو تاريخيا أو غيبيا...، بل كان محصورا في جهة واحدة هي الإعجاز البياني البلاغي المتمثل في أسلوب القرآن ونظمه وتراكيبه اللغوية"[3]، نعم كان ذلك في مقابل "العرب الذين تحداهم الله تعالى بأن يأتوا بمثل كتابه... لم يكونوا مشرّعين، ولا أطباء، ولا كيمياويين، ولا مؤرخين، بل كانوا مضرب المثل في الفصاحة والبلاغة وإحكام البيان، لذلك تحدّاهم الله من جهة هم فيها ضالعون، وهذا أظهر للعجز"[4].

ويتأكد هذا المعنى أيضا عند **عائشة عبد الرحمن** في خلاصة حاسمة مستدركة مفادها "لكن إعجازه البلاغي لم يكن قط موضع خلاف"[5]، كما "كانت أولى غايات البحث في أسلوب القرآن لبيان

---

[1]- أحمد ياسوف، جماليات المفردة القرآنية، دار المكتبي للطباعة والنشر والتوزيع ط/2 دمشق، سوريا، سنة: 1999، ص: 18/19.
[2]-الخالدي صلاح عبد الفتاح، إعجاز القرآن البياني ودلائل مصدره الرباني، ص: 17/16.
[3]- المطغي عبد العظيم إبراهيم محمد، خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية، مكتبة وهبة، ط/1، سنة: 1992، ص: 6/1.
[4]- المرجع نفسه، ص: 6/1.
[5]-بنت الشاطئ عائشة عبد الرحمن، الإعجاز البياني للقرآن ومسائل ابن الأزرق، دار المعارف، القاهرة، مصر، سنة: 1971، ص: 69.

خصائصه الجمالية وروعة تعبيره، والوصول إلى مناط الإعجاز فيه، فاتجهت الدراسات حول نظم القرآن وبديع تأليفه وبراعة تصويره"[1].

وللباحث المتقصي إمكانية إيجاد مثل هذه المعاني التي تجتمع عند القول بأولوية البيان في تحدي العرب بإعجاز القرآن، ذلك أنهم أمة برزت في هذا الميدان، وربما ختمنا هذه الوقفة مع **الرافعي** حينما أوجز ذلك كله في مقولته متحدثا عن العرب: "قامت فيهم بذلك دولة الكلام، ولكنها بقيت بلا ملك، حتى جاءهم القرآن"[2]، ثم لا يلبث أن يسأل مندهشا من شأن العرب البلاغي وعلاقة ذلك بالإعجاز في القرآن فيقول: "وأي شيء في تاريخ الأمم أعجب من نشأة لغوية تنتهي بمعجزة لغوية"[3].

[1]- محجوب الحسن محمد، الإحكام المعجز في بلاغة القرآن، مجلة جامعة الملك عبد العزيز، الآداب والعلوم الإنسانية، السعودية، سنة: 1994، م/7، ص: 109.

[2]- الرافعي مصطفى صادق، إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، المكتبة العصرية، صيدا بيروت، سنة: 2003، ص: 32.

[3]-المرجع نفسه، ص: 32.

المحاضرة الثانية: إرهاصات نظرية النظم

إشكالية اللفظ والمعنى:

يعد الحديث عن مسألة اللفظ والمعنى من أهم الموضوعات التي عالجها النقد القديم، بل يعتبر كثير من الدارسين أن هذه القضية ذات بعد ثقافي عابر، عرفتها ثقافات مختلف الشعوب، بما أكسبها بعدًا إنسانيا وربما كان من بين مبررات ذلك عندهم، أنها تقوم فيما تقوم عليه على محاولة الوقوف على سرّ قيمة التعبير في اللغة، فهي: "قضية شُغِل بها النقاد والعلماء والباحثون عن الحقيقة، منذ بدأ الإنسان يتأمل لغته الأدبية التي عبّر بها عن خوالجه النفسية ليعرف سر جمال هذه اللغة"[1].

وفي تراثنا ما يدلل على أهمية هذه المسألة، مسألة اللفظ والمعنى، بل يعتبرها القطب الذي دار عليه حيث البلاغة والفصاحة، فها هو ذا **بهاء الدين السبكي** يشيد بمقولة **للبغدادي** صاحب (قانون البلاغة) عندما ذكر أن: "البلاغة شيء يبتدئ من المعنى وينتهي إلى المعنى"[2]، ثم يعقب مادحا مقالته هذه بقوله: "فإن فيها جمعا بين ما افترق من كلام الناس، وهي الحق إن شاء الله"[3].

ثم يجد الباحث إضافة إلى ما سبق أن قضية اللفظ والمعنى شكّلت نقطة تقاطع لدراسات مختلفة قام بها النقاد، وعلماء اللغة، والبلاغيون، وعلماء الكلام، "فتشبعت الآراء، وذهب كل فريق ينتصر لما يراه في شأنها مثل هذه الآراء قد بسطتها دراسات قديمة وحديثة، لمن شاء العودة إلى ذلك"[4].

لقد أخذت عند بعضهم أبعادا فلسفية امتدت من حديث نشأة اللغة كما هو مقرر في مفردات فقه اللغة إلى قضية فتنة خلق القرآن الأمر الذي نرى تجاوزه إلى الحديث المبسّط الذي له علاقة مباشرة أو خفية بمتعلقات النظم خاصة، والبلاغة بصورة عامة.

---

[1] العماري علي محمد حسين، قضية اللفظ والمعنى وأثرها في تدوين البلاغة العربية مكتبة وهبة، القاهرة، مصر، ط/1، سنة: 1999، ص: 5.
[2] السبكي أحمد علي بهاء الدين، عروس الأفراح، تحقيق: عبد الحميد هنداوي، المكتبة العصرية، بيروت، لبنان، ط/1، سنة: 2003، ص: 93/1.
[3] المصدر نفسه، ص: 93/1.
[4] الزبيدي محمد بن محمد، تاج العروس من جواهر القاموس، تحقيق: مجموعة من المحققين، دار الهداية، (د.ت)، (د.ط)، ص: 274/20.

اللفظ والمعنى في اللغة والاصطلاح:

اللفظ لغة: لفظه من فيه يَلْفُظُهُ لَفْظًا، ولَفَظَ به لَفْظًا كضرب، وهو لغة مشهورة، وقال ابن عياد: "وفيه لغة ثانية: لَفَظَ يَلْفَظُ مثال سَمَعَ يَسْمَعُ، وقرأ **الخليل:** ما يَلْفَظُ من قول بفتح الفاء، أي رماه...، ومن المجاز: لَفَظَ بالكلام: نطق به، كتلفَّظ به"[1].

اللفظ اصطلاحا: "اللفظ في اصطلاح النحاة هو الصوت المشتمل على بعض الحروف الهجائية، فإذا دل على معنى يحسن السكوت عليه سمي كلاما، وبعض المحدثين من النقاد والأدباء يضيفون إلى اللفظ أمورًا لم يكن يعتدُّ بها المتقدمين...، فليست اللفظة –إذن– رمزا يشير إلى فكرة ومعنى فحسب، بل هو نسيج متشعب من صور ومشاعر، أنتجتها التجربة الإنسانية، وبثت في اللفظة، فزادت معناها خصبا وحياة"[2].

المعنى لغة: جاء في لسان العرب: "وقال بعض أهل اللغة لا يقال عُنِيتُ بحاجتك إلا على معنى قصدتها، من قولك عَنَيْتُ الشيء أعنيه إذا كنت قاصدا له، فأما من العناء، وهو العناية، فبالفتح نحو عَنَيْتُ بكذا و عنيت في كذا...، وعنيت بحاجتك أُعنى بها وأنا بها معنيٌّ، على مفعول، وفي الحديث: من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه"[3].

المعنى اصطلاحا: "التفسير المشهور للفظ المعنى، هو المقصود من الكلام لا خلاف في ذلك"[4]، ذكر صاحب أساس البلاغة في مادة: (ع، ن، ي)، عني بكذا و اعتنى به، وهو معنيٌّ به ومنه قول **سيبويه:** وهم ببيانه أعنى، وعنيت بكلامي كذا أي أردته وقصدته، ومنه: المعنى"[5].

---

[1]ـالعماري علي محمد حسين، قضية اللفظ والمعنى وأثرها في تدوين البلاغة العربية ص: 36.
[2]ـابن منظور جمال الدين محمد أبو الفضل، لسان العرب، دار صادر، بيروت، لبنان ط/3، سنة: 1414هـ، ص: 105/15.
[3]ـالعماري علي محمد حسين، قضية اللفظ والمعنى وأثرها في تدوين البلاغة العربية ص: 37.
[4]ـالزمخشري أبو القاسم محمود جار الله، أساس البلاغة، تحقيق: محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط/1، سنة: 1998، ص: 682/1.
[5]ـالجرجاني أبو بكر عبد القاهر، دلائل الإعجاز في علم المعاني، ص: 263.

ومما له علاقة بمفهوم النظم من قضية الدلالة الاصطلاحية للفظ المعنى ما نجده عند الإمام **عبد القاهر الجرجاني** حين يقول متحدثا عن معنى المعنى، وهي أن تقول: (المعنى)، و(معنى المعنى)، تعني بالمعنى المفهوم من ظاهر للفظ والذي تصل إليه بغير واسطة، و"معنى المعنى"، أن تعقل من اللفظ معنى، ثم يفضي بك ذلك المعنى إلى معنى آخر"[1]، ثم يستأنف **الجرجاني** مدّنا بدلالة المعنى وكيف لمستعمل اللغة أن يصرف له من الصور ما يجعله متقبلا لدى المتلقي فيحسن بذلك ترسيخه في ذهنه: "فاعلم أنهم يضعون كلاما قد أعطاك المتكلم أغراضه فيه من طريق معنى المعنى، فكنّى وعرّض، ومثّل واستعار..."[2] وهي كما نرى الصور البيانية التي تحيل على مزايا الكلام ولطائف المعاني المتوخاة من الوضعية الأسلوبية التي يجود بها الاستعمال المجازي للغة، قد بسط الجرجاني ذلك في كتابه أسرار البلاغة، وربما كانت لنا وقفات مع هذه القضية فيما يستقبلنا من هذه الإضاءات.

الجاحظ وقضية اللفظ والمعنى:

لقد شاع في الدراسات النقدية أن أول من طرق هذا الموضوع –اللفظ والمعنى– هو **الجاحظ**، ثم تداولها الدارسون بعد ذلك، وقد رأينا أن نسجل بعضًا مما توصلوا إليه، علما أن مباحثهم في هذا المجال تعددت وصارت تحتاج إلى دراسات مستقلة، والذين من بينهم: **الجاحظ** معلقا على من أعجب بهذين البيتين:

لا تحسبن الموت موت البلى فإنما الموت سؤال الرّجال

كلاهما موت ولكن ذا أفظع من ذاك لذل السؤال

[1]ـالمصدر نفسه، ص: 263.

[2]ـ الجاحظ عمرو بن بحر أبو عثمان، الحيوان، دار الكتب العلمية، ط/2، بيروت، لبنان سنة: 1424هـ، ص: 67/3.

قال: "ذهب الشيخ إلى استحسان المعنى، والمعاني مطروحة في الطريق يعرفها العجمي والغربي، والبدوي، والقروي، والمدني، وإنما الشأن في إقامة الوزن، وتخيّر اللفظ، وسهولة المخرج، وكثرة الماء، وفي صحة الطبع وجودة السبك، فإنما الشعر صناعة، وضرب من النّسج، وجنس من التصوير"[1].

انطلاقا من هذه العبارة رأى الكثيرون انتصار **الجاحظ** لمسألة اللفظ على حساب المعنى، بل أكثر من ذلك صار **الجاحظ** لدى بعضهم رأس المدرسة التي ترى أولية اللفظ على المعنى، في مقابل من لا يرى ذلك، بل يؤكد أن مذهبه كان على نحو مختلف، معتمدين مقولة **الجاحظ** التي تجعل الأهمية في كليهما جاء في رسائل الجاحظ "والاسم بلا معنى لغو، كالظّرف الخالي. والأسماء في معنى الأبدان والمعاني في معنى الأرواح، اللفظ للمعنى بدن، والمعنى للفظ روح...، ولا يكون اللفظ اسما إلا وهو متضمن بمعنى، وقد يكون المعنى ولا اسم له، ولا يكون اسم إلا وله معنى"[2].

وربما جاء في هذا الشاهد ما يؤشر على توازن نظرة الرجل غير أن الأكثر رواجا هو تصنيف عديد الدارسين له منطلقين من العبارة الشائعة الآنفة الذكر، من أنصار اللفظ، بل منهم من عدّ انتصاره للفظ انتصارًا للعرب في مقابل غيرهم وفي الأمر تداخل يصعب فكّه، "ولم يكن **الجاحظ** يتصور أن نظريته التي لم تكن تمثل خطرا عليه ستصبح في أيدي رجال البيان خطراً على المقاييس البلاغية والنقدية، لأنها ستجعل العناية بالشكل شغلهم الشاغل وحسبنا أن نقرأ **العسكري**..."[3]. وربما في الاستدراك التالي الذي يقدمه أحد الدارسين بعد تصنيفه **الجاحظ** منتصرا للفظ ما يساهم في تجلية الموقف وذلك في قوله: "ولكن علينا —مع هذا– أن نذكر أن **الجاحظ** يشيد بقيمة المعنى في غير موضع، مما يدل على أنه لم يعن باللفظ إلا لجلاء الصورة الأدبية، ولهذا الصورة أوثق رباط بالمعنى"[4].

---

[1]- الجاحظ عمرو بن بحر أبو عثمان، رسائل الجاحظ، تحقيق وشرح: عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، سنة: 1964، ص: 262/1.
[2]- إحسان عباس، تاريخ النقد عند العرب، دار الثقافة، بيروت، لبنان، ط/4، سنة: 1992، ص: 99.
[3]- مصطفى عبد الرحمن إبراهيم، في النقد الأدبي القديم عند العرب، مكة للطبعة القاهرة مصر، سنة: 1998، ص: 197.
[4]- العسكري أبو هلال الحسن، الصناعتين، ص: 58.

العسكري وانتصاره للفظ:

وإذا شئنا أن نتمثل الاتجاه الذي جعل السبق في الإنشاء الأدبي لجانب اللفظ وقفنا مع **العسكري** في ما يذهب إليه في نصه هذا: "ومن الدليل على أن مدار البلاغة على تحسين اللفظ أن الخطب الرائعة، والأشعار الرائقة ما علمت لإفهام المعاني فقط، لأن الرديء من الألفاظ يقوم مقام الجيدة منها في الإفهام، وإنما يدل حسن الكلام، وإحكام صنعته، ورونق ألفاظه، وجودة مطالعه، وحسن مقاطعه، وبديع مباديه، وغريب مبانيه... وأكثر هذه الأوصاف ترجع إلى الألفاظ دون المعاني"[1].

أنصار المعنى:

وفي مقابل هذا الاتجاه وجدنا من ينتصر للمعنى، ويرى أنه مكمن الأهمية في الإبداع الأدبي عامة، وفي الشعر بصور خاصة: "فمن الذي عرفوا بالاحتفال بالمعنى وتقديمه **أبو عمرو الشيباني** و**الآمدي وأبو تمام** و**المتنبي** و**ابن الرومي** و**ابن الأثير**، وهؤلاء لم يسقطوا شأن الألفاظ في الكلام، ولكنهم يؤخرون مرتبتها وتأثيرها، وينزلونها في الأهمية منزلة تالية للمعنى وقد بنوا رأيهم على أن المعاني هي ضالة الناس وغايتهم، وأنهم يتكلمون للدلالة عليها ويلبسونها الألفاظ للإبانة عنها، فما الألفاظ إلا وسيلة لتلك الغاية"[2].

أنصار التوفيق:

وفي مقابل ما سلف من شأن الاتجاهين، وجدنا من سعى إلى محاولة التوفيق، علماً أن أمر اللفظ والمعنى ظل كل واحد منهما مستقلا، إنما كان الشأن هاهنا البحث عن اللحمة الجامعة تماسكا للبنية، مع محاولة النهوض بالتعبير الجميل بواسطة المسألتين معا، ولعل من بين أوائل من يمثل هذا الاتجاه **ابن قتيبة** الذي عمل على الجمع بين اللفظ والمعنى خدمة للمنتج الإبداعي، علما أن منطلقه كان ضمان إنشائية شعرية

[1] المصدر نفسه، ص:58.
[2] محمد الطاهر درويش، في النقد الأدبي عند العرب، ص: 191، نقلا عن مصطفى عبد الرحمن إبراهيم في النقد الأدبي القديم عند العرب، ص: 196.

ينهض بها كلا الطرفين، وهي عنده معادلة لا تقوم إلا عليها، وأنّ كليهما تلحقه المزية، كما يمكن أن يلحقه القبح، وليس أحدهما بمنأى عن ذلك:

قال: "تدبرت الشعر فوجدته أربعة أضرب: ضرب منه حسن لفظه وجاد معناه، وضرب منه حسن لفظه وحلا، فإذا أنت فتشته لم تجد هناك فائدة في المعنى، وضرب منه جاء معناه وقصرت ألفاظه، وضرب منه تأخر معناه وتأخر لفظه"[1].

وفي تعريف البلاغة على سبيل المثال وجدنا **قدامة بن جعفر** يقول: "وهو أن يكون اللفظ مساويا للمعنى، حتى لا يزيد عليه ولا ينقص عنه، وهذه هي البلاغة التي وصف بها بعض الكتاب رجلا فقال: كانت ألفاظه قوالب لمعانيه، أي هي مساوية لها لا يَفْضُل أحدهما على الآخر وذلك مثل قول **زهير**:

ومهما تكن عند امرئ من خليقة وإن خالها تخفي على الناس تعلم[2]

وربما تردد مثل هذه النظر عند **الباقلاني**، ولا يحتاج المرء إلى كبير جهد حتى يضع يده على ذلك مع العلم أنها لا تزال تقيم فرقا بين المصطلحين اللفظ والمعنى، يقول: إنه علم أنّ تخير الألفاظ للمعاني المتداولة المألوفة، والأسباب الدائرة بين الناس، أسهل وأقرب من تخير الألفاظ لمعان مبتكرة، وأسباب مؤسسة مستحدثة فإذا برع اللفظ في المعنى البارع، كان ألطف وأعجب من أن يوجد اللفظ البارع في المعنى المتداول المتكرر... ثم إذا وجدت الألفاظ وفق المعنى، والمعاني وفقها، لا يفضل أحدهما على الآخر فالبراعة أظهر والفصاحة أتم"[3]. والملاحظة التي يمكن رصدها هي اتفاق الرجلين في ربط الفصاحة والبلاغة بضرورة التناسب بين اللفظ والمعنى، وأنه بتكاملهما فقط تُصنع قيم الجمال الفني للأساليب، فقد صار معلوما في تراثنا أن البلاغة في منتهاها تمكين للعناصر مناط الفاعلية الفنية.

[1]ـابن قتيبة أبو محمد عبد الله بن مسلم، الشعر والشعراء، تحقيق: أحمد محمد شاكر دار الحديث، القاهرة، مصر، سنة: 1377هـ، ص: 67/65/1.
[2]ـ البغدادي قدامة بن جعفر، نقد الشعر، مطبعة الجوائب، ط/1، القسطنطينية، سنة: 1302هـ، ص: 55.
[3]ـالباقلاني أبو بكر، إعجاز القرآن، تحقيق: السيد أحمد صقر، دار المعارف، القاهرة مصر، ط/5، سنة: 1997، ص: 42.

عبد القاهر وثنائية اللفظ والمعنى:

لقد رصد الدارسون خلاصة عن القضية من خلال موقف **الجرجاني** مما سبقه إليها الآخرون فقالوا: "مهما يكن من شيء فقد وصلت قضية اللفظ والمعنى إلى عبد القاهر على صورة لم يرتضها... والتي غلبت فيها دولة اللفظ..."[1].

بداية نسجل أن حديثنا عن وجهة نظر **عبد القاهر** يكون بحسب الحاجة المقدرة في هذا الموضع لأن وقفتنا معه ستطول فيما يستقبلنا من هذا البحث، ثم وجب أن يكون هذا الحديث منطلقا من إشادة بعض المتأخرين إذ فيها ما يختزل أمامنا كثيرا من القول الموجه لإقرار صواب ما يذهب إليه هذا الرجل، من ذلك ما ذهب إليه العلوي إذ قال: "إنه الماهر في لطائف الكلام وأسراره"[2]، ذكر هذه الملاحظة في سياق حديث عن قضايا الحقيقة في مقابل المجاز، وهي كما هو معلوم من مقتضيات الحديث عن قضية اللفظ والمعنى، ولا نحسب أحدا يؤتى مثل هذه الصفات إلا إذا كان جاعلا عن وعي متبصر نافذ قاعدة انطلاق معيارها: "حتى يكون من أهل الذوق والمعرفة"[3]، ذلك لمن أراد مدارسة أسباب الجمال وتداعياتها في البناء الأسلوبي حيث: "الذوق بيان أنّ العمدة في إدراك البلاغة الذوق والإحساس الروحاني"[4].

ينطلق **عبد القاهر** من مثل هذه المعايير شديدة الارتباط بالجمال بداية، ثم من تراكم خبرة معرفية شديد الثراء والعمق، وقد رأينا أن الجميع وإن اختلفوا فيما يتعلق بالأولوية، إلا أن المنتهى المرغوب ظل واحدا، هو مقدار منسوب الجمالية الذي يفترض أن يتحقق. وهو الذي أراد **عبد القاهر**الانتهاء به إلى أعلى مستوياته فاستحق بذلك أنه: "إذا كان في تاريخ النقد العربي والبلاغة العربية شيء يقارب ما انتهى إليه الفكر الحديث في الدراسات النقدية والبلاغية فهو منهج **عبد القاهر**..."[5].

---

[1]ـ درويش الجندي، نظرية عبد القاهر في النظم، مكتبة نهضة القاهرة، مصر، سنة: 1960، ص: 32.
[2]ـالعلوي يحي بن حمزة، الطراز لأسرار البلاغة وعلوم الإعجاز، المكتبة العصرية بيروت، لبنان، ط/1، سنة: 1423هـ، ص: 29/1
[3]ـالجرجاني أبو بكر عبد القاهر، دلائل الإعجاز في علم المعاني، ص: 291.
[4]ـالمصدر نفسه، ص: 426.
[5]ـالعشماوي محمد زكي ، قضايا النقد الأدبي بين القديم والحديث، دار النهضة العربية بيروت، لبنان، سنة: 1979، ص: 303.

يرى أحد النقاد المعاصرين من خلال قراءته لعطاء **عبد القاهر** لقضية اللفظ والمعنى أن الرجل قد بذل جهدا ضخما: "لتثبيت هذه الوحدة بين اللفظ والمعنى... استخدم فيه كثيرا من أساليب المحاجة والجدل وأبان فيه كثيرا مما غمض على النقاد من معاني الخلق الأدبي والنقد الأدبي"[1].

وربما كان امتياز**عبد القاهر** بهذا الصنيع إذ لم يبق اللفظ لفظا والمعنى معنى، إنما سعى للقول باندماج حاصل، وأن الجمالية المتوخاة في الشعرية الإنشائية إنما في الاستجابة للكلمة التي تعد محصلة لهذا الاندماج، يقول: "تتصور أن تكون معتبرا مفكرا في حال اللفظ مع اللفظ حتى تضعه بجنبه أول قبله، وأن تقول: هذه اللفظة إنما صلحت هاهنا لكونها على صفة كذا أم لا يعقل إلا أن نقول: صلحت هاهنا، لأن معناها كذا ولدلالتها على كذا، ولأن معنى الكلام والغرض فيه يوجب كذا، ولأن معنى ما قبلها يقتضي معناها؟ فإن تصورت الأول، فقل ما شئت، واعلم أنّ كلّ ما ذكرناه باطل وإن لم تتصور إلا الثاني، فلا تخدعنّ نفسك بالأضاليل ودع النظر إلى ظواهر الأمور، ليس هو الذي طلبته بالفكر، ولكنه شيء يقع بسبب الأول ضرورة من حيث إنّ الألفاظ إذا كانت أوعية للمعاني، فإنها لا محالة تتبع المعاني في مواقعها، فإذا وجب لمعنى أن يكون أولا في النفس، وجب للفظ الدال عليه أن يكون مثله أولا في النطق، فأما أن تتصور في الألفاظ أن تكون المقصودة قبل المعاني بالنظم والترتيب، وأن يكون الفكر في النظم الذي يتواصفه البلغاء فكرا في نظم الألفاظ، أو أن تحتاج بعد ترتيب المعاني إلى فكر تستأنفه لأن تجئ بالألفاظ على نسقها، فباطل من الظن ووهم يتخيّل إلى من لا يوفي النظر حقه، وكيف تكون مفكرا في نظم الألفاظ وأنت لا تعقل لها أوصافا وأحوالا إذا عرفتها عرفت أن حقها أن تنظم على وجه كذا"[2].

[1]ـالمرجع نفسه، ص: 315.
[2]ـالجرجاني أبو بكر عبد القاهر، دلائل الإعجاز في علم المعاني، ص: 53.

عبد القاهر وقضاؤه على ثنائية اللفظ والمعنى:

ولعله في القراءة المعاصرة التالية "ما يفصح عن عبقرية **الجرجاني** في مقاربته الحاسمة حاضرا وتاريخا لمسألة اللفظ والمعنى بعيدا عن الجدل الكلامي والتعقيد الفلسفي، إنما تكون الاتجاه صوب حشد عناصر الجمالية في الإبداع الشعري، وملخص القراءة فيما يلي"[1] وهي ترى أنه أي **الجرجاني** قد قضى على ثنائية اللفظ والمعنى بواسطة تفطنه إلى جملة حقائق هامة:

1- أن اللفظ في خدمة الموقف الذي يثار، فنحن حين نكتب لا نجمع ألفاظا ونضعها الواحدة بجوار الأخرى وإنما نعبر عن معان... وإنما جمالها ونجاحها في قدرتها على توليد المواقف المطلوبة، أو الإفصاح عن المعنى المراد أداؤه.

2- أننا، ونحن نؤلف شعرا أو نثرا، لا نفكر في أحد العنصرين تفكيرا مستقلا أو سابقا على الآخر، وإنما تتم عملية الخلق من العنصرين معا... من أجل ذلك حرص على أن يكون النظم نظم معان وليس نظم ألفاظ، واللفظة عنده لا تصلح لأنها على صنعة كذا، وإنما تصلح لدلالتها على كذا.

3- أن الفضيلة والمزية في كلام البلغاء أو نظر البلغاء لا تنصرف إلى اللفظ من حيث هو لفظ مفرد، أو إلى صفات الألفاظ السلبية أو الشكلية، ولكن من حيث قدرتها على إثارة الموقف المطلوب والتعبير عنه...، كذلك لا انفصال بينهما في عملية النقد الأدبي، أو عند التمييز والحكم فلا تنسب الفضيلة لأحدهما دون الآخر، وهنا نعود إلى جملة **كروتشه** المشهورة وهي: "أن المضمون والصورة يجب أن يميّزوا في الفن، ولكن لا يمكن أن يوصف كل منهما على انفراد بأنه فني، لأن النسبة القائمة بينهما هي وحدها الفنية"[2]. إن صدقية هذه الملاحظات تأكدت قبل ذلك عند **الجرجاني** مقرا بجدارها بهذه الطريقة الحوارية المقنعة، يقول: "وهل يقع في وهم وإن جُهد، أن تتفاضل الكلمتان المفردتان، من غير

[1]- ينظر تفصيل ذلك عند محمد زكي العشماوي، قضايا النقد، ص: 317، 318، 319.
[2]- نقلا عن محمد زكي العشماوي، قضايا النقد، ص: 318.

أن ينظر إلى مكان تقعان فيه من التأليف والنظم...، وهل تجد أحدا يقول: هذه اللفظة نصيحة، إلاّ وهو يعتبر مكانها من النظم، وحسن ملاءمتها معناها لمعاني جاراتها، وفضل مؤانستها لإخوانها؟"[1].

ثم يمثل **عبد القاهر** لمقولاته هاته المتعلقة بمسألة اللفظ والمعنى بوقوفه على طبيعة بنية الأسلوب في بعض آي القرآن الكريم، رابطا القضية بطبيعة المعنى المتولد عن السياق العام، وإن الدلالة النهائية المخرجة إخراجا جماليا هي فقط التي تقول بها نظرية النظم، وأنه بذلك يمكن أن يستدل على مدى الأهمية التي أولاها لدمج هذه الثنائية، وأنها كانت نعم المنطلق في كشف المصطلح المتمثل في "النظم" الذي جعله الأساس في مقاربة مكمن الإعجاز في التعبير القرآني.

[1]ـالجرجاني أبو بكر عبد القاهر، دلائل الإعجاز في علم المعاني، ص: 44.

المجاز:

يعد الحديث عن المجاز من امتدادات مسألة اللفظ والمعنى، مع بعد التّحول الدلالي، إن المسألتين من الروافد التي صبت في نظرية النظم، ننوّه ابتداء أن هذا المبحث ليس مطلوبا منه الوقوف على تنوّع المدارس التي اختلفت نظرتها للمجاز بل تعدت الاختلاف إلى التّضاد، إنما يكون المقصد فقط تحسس ما تعلق منه باعتباره مؤشرا لما أسلفنا ذكره من تحقيق لمسألة النظم.

الحقيقة والمجاز:

1-الحقيقة:

أ- **لغة:** في لسان العرب: "حقق: نقيض الباطل... وفي التنزيل: ﴿قَالَ الذِينَ حقّ عَلَيهِمُ القولُ﴾، أي ثبت، وقوله تعالى ﴿وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمةُ العَذَابِ عَلىَ الكَافِرِينَ﴾، أي: وجبت وثبتت"[1].

ب- **اصطلاحا:** يقول **التفتازاني:** "في الاصطلاح، الكلمة المستعملة فيما وضعت له في الاصطلاح به يقع التخاطب"[2]، ويرى **ابن فارس** أنها: "هي الكلام الموضوع موضعه الذي ليس باستعارة ولا تمثيل ولا تقديم ولا تأخير.."[3]

2-المجاز:

أ- **لغة:** "... من جاز المكان يجوزه إذا تعداه"[4]

ب- **اصطلاحا:** "... إذا عدل باللفظ عما يوجبه أصل اللغة وصف بأنه مجاز"[5]، "ومن سنن العرب مخالفة ظاهر اللفظ معناه"[6].

---

[1]- ابن منظور جمال الدين، لسان العرب، ص: 49/10.
[2]- الجرجاني الشريف، الحاشية على المطول، قرأه وعلق عليه: رشيد أعرضي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط/1، سنة: 2007، ص:353.
[3]- ابن فارس أبو الحسين أحمد، الصاحبي في فقه اللغة، الناشر: محمد علي بيضون ط/1 سنة: 1997، ص: 149.
[4]- القزويني الخطيب جلال الدين، التلخيص في علوم البلاغة، ضبطه وشرحه: عبد الرحمن البرقوقي، دار الفكر العربي، سنة: 1932، ص: 292.
[5]- المصدر نفسه، ص:292.
[6]- ابن فارس أبو الحسين أحمد، الصاحبي في فقه اللغة، ص: 150.

يقول أحد الباحثين المعاصرين في ترتيب الحقيقة والمجاز بعيدا عما حدث بين العلماء في هذا الشأن أنّ: "الحقيقة سابقة في الوجود على المجاز، والحق أنها كذلك عند كثير من البلاغيين وعلماء الأصول"[1].

كانت الحاجة ضرورية إلى مثل هذا التقديم حتى نتبين لماذا يغادر مستعمل اللغة الحقيقة إلى المجاز؟ وكيف يسهم ذلك في إثراء اللغة ذاتها، ثم كيف نظر عبد القاهر إلى هذه المسألة بما يفيد منه في ضبط مسألة النظم التي يقول بها مفسّرا سرّ جمالية اللغة الفنية.

وربما فيما يذهب إليه **ابن جني** ما يضيء الإجابة عما يمكن أن يفيد في الإجابة عن مثل الأسئلة الآنفة، أو غيرها، يقول: "وإنما يقع المجاز ويعدل إليه عن الحقيقة لمعان ثلاثة، وهي: الاتساع والتوكيد والتشبيه، فإن عدم هذه الأوصاف كانت الحقيقة البتة"[2].

يفيد **عبد القاهر** في تخريجه للبنيات اللغوية المعدولة من تحسس المعنى الناتج عن الاستعمال المجازي كما هو في إشارة ابن جني تبعا لما يقول به في نظرية النظم القائمة فيما تقوم عليه على التّصرف في اللغة حين الكلام (الاستعمال الخاص) الفني الشعري، ولكن في حدود قيم المسامحة التي تقرّها القواعد.

يقول: "وأما المجاز فكل كلمة أريد بها غير ما وقعت له في وضع واضعها، لملاحظة بين الثاني والأول، فهي مجاز وإن شئت قلت كل كلمة جُزْتَ بها ما وقعت في وضع الواضع إلى ما لم توضع له"[3]، ثم يفسر ذلك بنماذج تطبيقية تقرب المفهوم المرجوّ وتعطي انطباعا أن المعالجة لم تغادر بحث **عبد القاهر** في مجال متابعة مدى الملاءمة الدلالية بين الألفاظ والمعاني المتوخاة منها، ليصب ذلك جميعه في قدرة اللغة على البناء الشعري، الذي يجعل الأفق أكثر رحابة أمام المبدع، يقول: "إنك إذا قلت: رأيت أسداً تريد رجلا شبيها بالأسد، لم يشتبه عليك الأمر في حاجة الثاني إلى الأول، إذ لا يتصور أن يقع الأسد للرجل على

[1]- أحمد محمد ويس، الانزياح في التراث النقدي والبلاغي، اتحاد الكتاب العرب، دمشق سوريا، سنة: 2002، ص: 115.
[2]-ابن جني أبو الفتح عثمان، الخصائص، تحقيق: محمد علي النجار، دار الكتب المصرية القاهرة، مصر، ط/2، سنة: 1957، ص: 442/2.
[3]- الجرجاني أبو بكر عبد القاهر، أسرار البلاغة، قرأه وعلق عليه: محمود محمد شاكر الناشر: مطبعة المدني، القاهرة، مصر، ص: 351.

هذا المعنى الذي أردته على التشبيه على حدّ المبالغة..."[1]، ونجد تطبيقا معاصرا لدارس تخصص في معالجة قضية اللفظ والمعنى ومدى تأثرها بمباحث المجاز يقول: "لقد انتهى النزوع المتحسس خصائص الخطاب الأدبي تحت طائلة مبحث المجاز إلى الإقرار بوجود مستويين في استعمال اللغة مستوى يجري منه المستعمل على العادة والعرف (الاحتذاء) ومستوى يتصرف فيه المستعمل في المواصفات ويجري اللغة على ما تستجيب لمقاصده في العبارة وجمعوا كل ذلك تحت مصطلح (الإنشاء) بالمعنى الواسع الذي يدل عليه الأصل اليوناني لكلمة الشعرية"[2].

ويتأكد معنى ربط **الجرجاني** للمجاز بظاهرة العدول "فإذا عُدل باللفظ عما يوجبه أصل اللغة وُصف بأنه مجاز، على معنى أنهم جازوا به موضعه الأصلي، أو جاز هو مكانه الذي وضع فيه أولا"[3].

وقد علمنا من رؤية **ابن جني** لطبيعة الوظيفة المتمثلة في: (الاتساع، والتوكيد والتشبيه)، قلت تأكدت لنا القراءة الجمالية لمسألة المجاز وإن انطلقت من مباحث اللفظ والمعنى وأنها تشير في علاقتها بالنظم بمحاولة النظر إلى اللغة باعتبار المستوى الثاني، المستوى مناط الجمال لاعتبار أساس واحد وهو أنه المبدع فيها صاحب مبادرة بناء الخطاب بحسب مقتضى حرية التصرف فثمة "وجود مستويين من الكلام أحدهما مقصور على مجرد الإفهام أو التوصيل، لا يستخدم من عناصر اللغة إلا القدر الضروري، والآخر يتجاوز هذه الوظيفة من جهة، ويتأنق في استخدام اللغة على نحو خاص، من جهة أخرى"[4].

ولم يكن بخاف طلب مزية الكلام على **عبد القاهر**، وأنه مطلوب من لغة الاستعمال المتفرد الخاص يقول: "وجملة الأمر أنه لا يرى النقص يدخل على صاحبه في ذلك إلا من جهة نقصه في علم اللغة، لا يعلم أن ههنا دقائق وأسرار طريق العلم بها الروية والفكر، لطائف مستقاها العقل، وخصائص معان ينفرد بها قوم قد هدوا إليها، ودلوا عليها...، وأنها السبب في أن عرضت المزية في الكلام ووجب أن يفضل

---

[1]- المصدر نفسه، ص: 352.
[2]- الأخضر جمعي، اللفظ والمعنى في التفكير النقدي والبلاغي عند العرب، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، سوريا، سنة: 2001، ص: 28.
[3]- الجرجاني أبو بكر عبد القاهر، أسرار البلاغة، ص: 395.
[4]- عبد الحكيم راضي، نظرية اللغة في النقد العربي، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة مصر، سنة: 2003، ص: 33.

بعضه بعضا، وأن يبعد الشأوُ في ذلك... حتى ينتهي الأمر إلى الإعجاز، وإلى أن يخرج من طوق البشر"[1].

[1]- الجرجاني أبو بكر عبد القاهر، دلائل الإعجاز في علم المعاني، ص: 7.

المحاضرة الثالثة: نظرية النظم

النظم:

في اللغة: جاء في لسان العرب: "النظم: التأليف، نظمه ينظمه نظما ونظاما ونظّمه فانتظم وتنظّم ونظمتُ اللؤلؤ أي جمعته في السِّلك، والتنظيم مثله ومنه نظمتُ الشعر...، وكل شيء قرنته بآخر أو ضممت بعضه إلى بعض، فقد نظمتَهُ...، والنّظم ما نظمته من اللؤلؤ وخرز وغيرها، والنظام ما نظمت فيه الشيء من خيط وغيره وكل خيط ينظم به لؤلؤ أو غيره فهو نظام[1]". وهو: "ضم شيء إلى شيء آخر[2]".

فالمعنى العام المستخلص من مجموع ما ذهبت إليه المعاجم يدور في ذات المعنى المنوه به وأنه حديث عن التنسيق والانسجام والترتيب، وأنه حتى في مستوى الدلالة المعجمية له علاقة بالتزيين والتحسين والجمال، إذ يرتبط دائما بضم الجواهر والحجارة الكريمة، وإلى مثل ذلك.

في الاصطلاح: لا تخرج دلالة النظم في الاصطلاح عن حقيقة دلالتها اللغوية من حيث المبدأ تبعا لما أشرنا إليه في التعليق السابق، وإليك ما ذهب إليه أحد الدارسين لهذا المصطلح ومتعلقاته، "ونظم الكلام عند البلاغيين هو تنسيق دلالة الألفاظ وتلاقي معانيها بما تقوم عليه من معاني النحو المتخيرة والموضوعة في مكانها على الوجه الذي يقتضيه العقل[3]". وليس في النص إلا محاولة الصياغة الحديثة الساعية إلى تقريب الفهم لما ذكره **الجرجاني** عندما قال: "فاعلم أن ليس النظم إلا أن تضع كلامك الوضع الذي يقتضيه علم النحو، وتعمل على قوانينه وأصوله...[4]"، ثم يسهب في التمثيل التطبيقي لهذا التنظير المقنن،

---

[1]- ابن منظور جمال الدين، لسان العرب، ص: 578/12.

[2]- الفيروز أبادي مجد الدين، القاموس المحيط، تحقيق: مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، ط/8، سنة: 2005، ص: 1162.

[3]- عبد العزيز عبد المعطي عرفة، من بلاغة النظم العربي، عالم الكتب، ط/2، بيروت لبنان، سنة: 1984، ص: 7/1.

[4]- الجرجاني أبو بكر عبد القاهر، دلائل الإعجاز في علم المعاني، ص: 81.

وقد كان"**القاضي عبد الجبار** قد سبق **عبد القاهر** في توطيد الحديث عن مضمونه وجوهره، ثم جاء **عبد القاهر** فصاغ منه نظرية متكاملة[1]".

وأنه بهذه الرؤية المقدمة من خلال البعد الاصطلاحي يكون قد: "انتهج منهجا علميا لدراسة النظم وجعل هذا المنهج هو السبيل إلى الفهم الصحيح لمسألة البلاغة والإعجاز[2]"، وإنما عدّ تفسير التحرير والتنوير من أهم التفاسير ذات التوجه اللغوي الكاشف عن الأبعاد الجمالية المحققة لقيم الإبهار، أنه تمثل حس **الجرجاني** وقد أكثر الوقوف على قواعده في الكشف والفهم، التي منها: "إن القرآن كلام عربي فكانت قواعد العربية طريقا لفهم معانيه...، ويعني بقواعد العربية مجموع علوم اللسان العربي، وهي: متن اللغة والتصريف، والنحو، والمعاني، والبيان، ومن وراء ذلك استعمال العرب المتبع من أساليبهم[3]"، ويقول في موضع آخر: "إن نظم القرآن مبني على وفرة الإفادة وتعدد الدلالة فجمل القرآن لها دلالتها الوضعية التركيبية التي يشاركها فيها الكلام العربي كله، ولها دلالتها البلاغية التي يشاركها في مجملها كلام البلغاء ولا يصل شيء من كلامهم إلى مبلغ بلاغتها...[4]" ، وقد استشهد على ذلك بما ذهب إليه **الزمخشري** حين قال مستخدما ذات المصطلح النظم: "ومن حق مفسر كتاب الله الباهر، وكلامه المعجز أن يتعاهد في مذاهبه بقاء النظم على حسنه والبلاغة على كمالها، وما وقع به التحدي سليما من القادح، فإذا لم يتعاهد أوضاع اللغة فهو من تعاهدِ النظم والبلاغة على مراحل[5]".

وربما لمثل هذه القناعة الأسلوبية الجمالية عند **الزمخشري** و**ابن عاشور** من خلال صنيعهما في قراءة الامتدادات الجمالية للغة خير من انبرى لتطبيق نظرية **عبد القاهر** في النظم القرآني، قد لفتنا لهذا الأمر من أجل ذلك، من أجل الإحالة على التمثل التطبيقي لآراء **عبد القاهر** في الكشف عن طبيعة الإعجاز

---

[1]- عبد الله عبد الرحمن بانقيب، مناهج التحليل البلاغي عند علماء الإعجاز، رسالة دكتوراه، إشراف: محمود توفيق محمد سعيد، سنة: 2008/2007، جامعة أم القرى مكة الكرمة، السعودية، ص: 171.

[2]- أحمد محمد أمين إسماعيل، الإعجاز البلاغي لتحولات النظم القرآني في المتشابه من الألفاظ والتراكيب، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط/1، سنة: 2011، ص: 22.

[3]- ابن عاشور محمد الطاهر، التحرير والتنوير، ص: 19/1.

[4]- المرجع نفسه، ص: 110/1.

[5]- الزمخشري أبو القاسم محمود جار الله، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، ط/3، سنة: 1407هـ، ص: 68/1

البلاغي في لغة القرآن الكريم. ولمن طلب ذلك عند المتقدمين أو المتأخرين رجع إلى تفسير الكشاف **للزمخشري**، وتفسير التحرير والتنوير **لابن عاشور** ففهيما ما يشبع الفهم في حديث النظم وسيلة للكشف عن مكامن الإعجاز في التعبير القرآني.

مشروعية القول بمصطلح النظم:

قبل أن نغادر الحديث عن مصطلح النظم، رأيت التّعرض لمدى استعماله من قبل علمائنا في التراث تعبيرا عن آلية التحدي وسر الإعجاز في التعبير القرآني، وكيف تم الاعتبار لهذا المصطلح بالقدر الذي تتكثف فيه مقومات الخصوصية والتميز في القرآن الكريم، يجيب أحد الدارسين المعاصرين عن السؤال التالي: وهل أطلق أحد السلف هذا الوصف على كلام الله – أي النظم–؟ ثم يورد جملة من الشواهد عن هذا الاستعمال وللغاية المرجوة منه، واخترنا من النماذج التي ألمح إليها ما يلي:

ذكر: "إن من أوائل من تناول ذلك ووصف كلام الله به من علماء السلف المشهود لهم بالاستقامة في الدين وحسن المعتقد والانتصار لمذهب أهل السنة والجماعة **ابن قتيبة**[1]". ثم يشفع هذه الملاحظة يقول **ابن قتيبة** متحدثا عن القرآن الكريم: "... وقطع منه بمعجز التأليف أطماع الكائدين، وإبانة بعجيب النظم عن حيل المتكفين... لا تنقضي عجائبه، ومفيدا لا تنقطع فوائده، ونسخ به سالف الكتب وجمع كثيرا من معانيه في قليل من لفظه[2]".

ويشير صاحب تفسير المحرر الوجيز **ابن عطية** إلى مصطلح النظم، وقد قرنه بمسألة الإعجاز في التعبير القرآني، فبعد قوله تعالى ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِنْ دُونِ اللهِ إِنْ كُنْتُمْ

[1]- الحنين ناصر بن عبد الرحمن بن ناصر، النظم القرآني في آيات الجهاد، مكتبة التوبة ط/1، الرياض، المملكة العربية السعودية، سنة: 1996، ص: 10.

[2]- ابن قتيبة أبو محمد عبد الله بن مسلم، تأويل مشكل القرآن، تحقيق: إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ص:11.

صَادِقِينَ﴾ يونس/38، ذكر أن: "التحدي في هذه الآية وقع بجهتي الإعجاز اللتين في القرآن، أخدهما النظم والرصف والإيجاز والجزالة... وحين تحداهم بعشر سور مفتريات إنما تحداهم بالنظم وحده[1]".

وعند **السيوطي** الذي يعتبر الوجه الثالث من وجوه إعجاز القرآن الكريم: "حسن تأليفه، والتئام كلمه وفصاحتها ووجوه إعجازه وبلاغته الخارقة عادة العرب الذين هم فرسان الكلام وأرباب هذا الشأن فجاء نطقه عجيب، وأسلوبه الغريب مخالفا لأساليب كلام العرب ومنهاج نظمها ونثرها[2]". وليس بخاف أن مصطلح التأليف الذي ورد في هذا الشاهد يصلح مرادفا لمصطلح النظم كما سبقت إليه إشارة في التعريف. هذه جملة من النماذج عن استعمال مصطلح النظم، وإنه بالتقدم في هذا البحث سوف نلخص أنه سيتكرس في مباحث العلماء عامة وأهل اللغة والبلاغة خاصة، سيما بعد أن أنهى **عبد القاهر الجرجاني** ضبط حدِّه بديلا بلاغيا وجماليا تتمحور حوله آليات الكشف عن سر إعجاز القرآن الكريم.

[1]- الأندلسي أبو محمد عبد الحق بن عطية، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز تحقيق: عبد السلام، عبد الشافي محمد، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط/1، سنة: 1422هـ، ص: 120/3.

[2]- السيوطي أبو الفضل جلال الدين عبد الرحمن، معترك الأقران في إعجاز القرآن ضبطه وصححه شمس الدين، دار الكتب العلمية، ط/1، سنة: 1988، ص: 23/1.

عبد القاهر الجرجاني ونظرية النظم:

يعتبر **عبد القاهر الجرجاني** قطب الرحى الذي تدور عليه نظرية النظم ولذلك ارتأينا أن يكون الحديث عنه تبعا لعناصر شديدة الانسجام محاولة لإعطاء فكرة عنه وعمن قال بالنظم، ثم كيف كان شأن تطبيقه العملي لما قال به نظريا.

عبد القاهر الجرجاني:

محيطه ونشأته:

هو "عبد القاهر بن عبد الرحمن، أبو بكر الجرجاني النحوي المشهور، أخذ النحو عن أبي الحسين محمد بن علي الفارسي، وكان من كبار أئمة العربية، صنف المغني في شرح الإيضاح في نحو ثلاثين مجلدا والمقتصد في شرح الإيضاح أيضا في ثلاث مجلدات، وإعجاز القرآن...، كان شافعي المذهب أشعري الأصول مع دين وسكون، توفي سنة إحدى سبعين وأربعمائة رحمه الله[1]"، ولد مطلع القرن الخامس الهجري بجرجان إحدى المدن الفارسية المشهورة، والواقعة في طبرستان وخراسان، ظل في بلدته لا يبرحها، وقد ذكر **الحموي** بقوله: "أما جرجان فإنها أكبر مدينة بنواحيها...، وأهلها أحسن وقارا وأكثر مروءة ويسارا من كبرائهم، ولجرجان مياه كثيرة وضياع عريضة، وليس بالمشرق بعد أن تجاوز العراق مدينة أجمع ولا أظهر حسنا من جرجان على مقدارها، وذلك أن بها الثلج والنخل، و بها الفواكه... وأهلها يأخذون أنفسهم بالتأني والأخلاق المحمودة...[2]".

[1]- ابن شاكر محمد الملقب بصلاح الدين (764هـ)، فوات الوفيات، تحقيق: إحسان عباس دار صادر، بيروت، لبنان، ط/1، سنة: 1974، ص: 370/2.
[2]- الحموي شهاب الدين ياقوت (626هـ)، معجم البلدان، دار صادر، بيروت، لبنان ط/2 سنة: 1995، ص: 120/2.

تعلمه وتعليمه:

وربما في ملاحظات **الحموي** ما يسعف على فهم بعض الحاجات التي صنعت المنزع الجمالي لدى **عبد القاهر**، وهو الذي ولد في مثل هذه الظروف البيئية والاجتماعية والعلمية، "وقد تخرج من جرجان كثير من العلماء والفقهاء والمحدثين والأدباء حينما كانت زاخرة بالنشاط العلمي[1]"، وقد قيّض الله سبحانه وتعالى لعبد القاهر إضافة لما رأينا من ظروف عالما: "من أعلام النحو هو **أبو الحسين محمد بن الحسين الفارسي** النحوي ابن أخت **أبي علي الفارسي** الذي نزل بجرجان واستقر بها وأخذ عنه أهلها فضلا كثيرا، أخذ عبد القاهر عنه علم النحو، ولم يأخذ عن أحد سواه[2]"، كما "قرأ الكتب الكثيرة التي موضوعها اللغة والنحو والبلاغة والأدب بعقل وفكر واع للكثيرين الذين اشتهروا باللغة والنحو والبلاغة والأدب أمثال كتاب **سيبويه** وما كتبه **الجاحظ** و**المبرد** و**ابن دريد** و**العسكري** و**المرزباني** و**الفارسي** و**الآمدي** و**القاضي الجرجاني** و**ابن جني**...[3]" ، ذلك جميعه جعل منه قبلة يطلبها من قصد التّزود بالعلم، "تصدر بجرجان، وذاع صيته وشدّت إليه الرحال من قبل طلاب العلم في زمانه... من طلابه **يحي بن علي الخطيب التبريزي**، و**نصر الدين بن محمد الشجري**[4]".

[1]- وليد محمد مراد، نظرية النظم وقيمتها العلمية في الدراسات اللغوية عند عبد القاهر دار الفكر، ط/1، دمشق، سوريا، سنة: 1983، ص: 47.
[2]- المرجع نفسه، ص: 48.
[3]- المرجع نفسه، ص: 50.
[4]- المرجع نفسه، ص: 50.

مؤلفاته:

من أهم المؤلفات ذات الصلة بنظريته في النظم:

- دلائل الإعجاز: طبع لأول مرة سنة (1321هـ) بعناية السيد محمد رشيد رضا وإشراف الإمام محمد عبده.
- أسرار البلاغة: طبع لأول مرة سنة (1320هـ)، وقد أقرهما الشيخ محمد عبده مادة لتدريس في الأزهر الشريف.
- الرسالة الشافية: سعى فيها عبد القاهر إلى إثبات قدرة القرآن الكريم على تحدي العرب، كما ردّ فيها عن القائلين بالصرفة كتفسير لمسألة الإعجاز في تعبير القرآن الكريم.

طبيعة منهجه:

من خلال أعماله الثلاثة هذه، وبصورة أخص يتولى **الجرجاني** في دلائل الإعجاز الإجابة عن السؤال التالي*: ماذا أعجز العرب من القرآن؟ وعن ماذا عجزوا؟ أعن معانٍ من دقة معانيه وحسنها وصحتها في العقول؟ أم عن ألفاظ مثل ألفاظه؟ وقد كانت إجابة الرجل منطلقة من خلفية معرفية صميمة كوّنها من قراءاته لما سبق إليه من علوم اللغة والبلاغة، ومختلف ما عرف قبله، مستفيدا من طبيعته النفسية الرزينة القادرة على الانتصار للفكرة بالروية والعقل يستند في ذلك إلى موهبة وذوق وإحساس بالجمالية في مناحي الحياة كلها، قال **عبد القاهر**: "أعجزتهم مزايا ظهرت في نظمه، وخصائص صادفوها في سياق لفظه، وبدائع راعتهم من مبادئ آيه ومقاطعها، ومجاري ألفاظه ومواقعها...[1]".

ثم يفصح عن أنّ هذه النتيجة المتوصل إليها ليست تعبيرا عن حاجة عاطفية أملتها طبيعة الحماسة إنما هي خلاصة عمل قام على خطة محكمة البناء، علمية موضوعية تراعي العقل وتقدم الدليل، ثم ذلك كله

*ينظر عبد الكريم الخطيب، الإعجاز في دراسات السابقين، دار المعرفة، بيروت، لبنان ط/2 سنة: 1975، ص: 258.
[1]- الجرجاني أبو بكر عبد القاهر، دلائل الإعجاز في علم المعاني، ص: 39.

متضمن في نفس تواقة لخدمة كتاب الله سبحانه راجية رضاه بهذا الصنيع، يقول موضحا ذلك: "وجملة ما أردت أن أبينه لك: أنه لا بد لكل كلام تستحسنه، ولفظ تستجيده، أن يكون لاستحسانك ذلك جهة معلومة وعلة معقولة وأن يكون لنا إلى العبارة عن ذلك سبيل، وعلى صحة ما ادّعيناه دليل... ويربأ بك عن أن تستبين هُدًى ثم لا تهتدي إليه، وتُدِلَّ بعرفانٍ ثم لا تستطيع أن تدل عليه[1]".

ذلك هو **عبد القاهر**، وتلك هي إجابته، وذلك هو المنهج الذي ارتضاه خطة لبحث مسألة النظم وهي عنده السّر في إعجاز لغة القرآن، وقد رأيت أن بسط متعلقات هذه المسألة يستحسن إرجاؤه لصالح الطواف ببعض ممن عملوا قبل **الجرجاني** من العلماء ولو باقتضاب على مصطلح النظم في بعده الذي رأينا، والذين يُعدّون بحق قاعدة الجرجاني التي انطلق منها وطوّرها وحدّ حدودها وأخرجها في شكل نظرية متكاملة تعرض في حذق وذكاء جمالية التعبير في لغة القرآن الكريم، تقول بنت الشاطئ: "ويمتنع عند **عبد القاهر**، أن يفهم هذا الإعجاز البلاغي في النظم، من لم يؤت الآلة التي بها يفهم وهي العلم بالبلاغة والفصاحة[2]".

النظم قبل عبد القاهر:

يمتد الحديث عن طبيعة الإعجاز في التعبير القرآني إلى حيث بداية تعامل العرب مع القرآن الكريم، مع محاولة منهم فهم عدم قدرتهم على الإتيان بمثله، وقد سلف الحديث عن تعدد إجاباتهم عن ذلك، ومناط وقفتنا صار معلوما وهو محاولة التعرف على مواقف من انتصر من العلماء للبعد البلاغي للإعجاز من المعبرين على ذلك بمصطلح النظم، وقد رأينا الوقوف على ما ذهب إليه بعضهم في هذا الخصوص نذكر منهم:

[1]-المرجع نفسه، ص: 41.
[2]- بنت الشاطئ عائشة عبد الرحمن، الإعجاز البياني للقرآن ومسائل ابن الأزرق دار المعارف، القاهرة، مصر، سنة: 1984، ص: 121.

الجاحظ وحقيقة ما ذهب إليه:

أبو عثمان الجاحظ (عمرو بن بحر بن محبوب، ولد في البصرة (150هـ/255هـ))

لقد سبق الحديث عن **الجاحظ** لما تعلق الأمر بمسألة اللفظ والمعنى، ورأينا أن انتصاره للفظ كما عدّه الكثيرون إنما يجب أن يفهم في سياقه العام، "فالجاحظ لم ينتصر للفظ، ولم يقف إلى جانب الأسلوب، إلا لمواجهة هذا الخطر الداهم على اللغة، وإلا فإنه – كما قلنا- حفيٌّ بالمعنى، مؤثر له، حريص عليه مادام لم يَجُرْ على الأسلوب، ولم يفسد كيانه..."[1] ، إن الجاحظ كان في وجه تيار عنيف يتجه إلى الاستخفاف بالأساليب العربية...، وأن من قل جهده، أو قصر باعه عن أن يجد اللفظ العربي... عمد إلى أي لفظ، وتناول أي أسلوب ولو كان فيه ما فيه من الجفاء والعجمة[2]".

ويرى **عبد الكريم الخطيب** أن **عبد القاهر** كان مدافعا عن مثل هذا التخريج لما ذهب إليه **الجاحظ** وبعض القائلين بمثل قوله، حينما ذكر أن: "ومعلوم أن سبيل الكلام اللفظ سبيل التصوير والصياغة، وأن سبيل المعنى الذي يعبّر عنه سبيل الشيء الذي يقع التصوير والصوغ فيه كالفضة والذهب يصاغ منهما خاتم أو سوار...[3]".

ويبرز تقدير مسألة إعجاز القرآن عند **الجاحظ** من فهم متقدم لبعض معطيات البناء الأسلوبي القائم على إحكام الضم والتأليف بين الكلمات، بل أكثر من ذلك يأتي على ذات المصطلح – النظم- بل يدلل من خلال شفع ما يذهب بالمثال عن ذلك من حديث العرب: "لأن رجلا من العرب لو قرأ على رجل من خطبائهم وبلغائهم سورة واحدة، طويلة أو قصيرة، لتبين له في نظامها ومخرجها، وفي لفظها وطبعها، أنه عاجز عن مثلها، ولو تحدى بها أبلغ العرب لظهر عجزه عنها، وليس في الحرف والحرفين، والكلمة والكلمتين، ألا ترى أن الناس قد كان تهيأ في طبائعهم، ويجري على ألسنتهم أن يقول رجل منهم: الحمد

[1]- عبد الكريم الخطيب، الإعجاز في دراسات السابقين، ص: 168.
[2]- المرجع نفسه، ص: 168.
[3]- المرجع نفسه، ص: 168.

لله، وإنا لله، وعلى الله توكلنا، وربنا الله، وحسبنا الله ونعم الوكيل، وهذا كله في القرآن[1]"، ثم يفصح عن طبيعة العجز أمام لغة القرآن ومردّ ذلك حين يستأنف قائلا: "غير أنه متفرق غير مجتمع، ولو أراد أنطقُ الناس أن يؤلف من هذا الضرب سورة واحدة طويلة أو قصيرة، على نظم القرآن وطبعه وتأليفه ومخرجه لما قدر عليه ولو استعان بجميع قحطان ومعد بن عدنان[2]".

ومع هذا الذي ظهر عنده إلا أنه قال بالصرفة في تبرير مسألة إعجاز القرآن الكريم تماشيا مع ما ذهب إليه أستاذه النظام، واتجاهه فهو أحد أئمة الاعتزال، غير أن بعض الدارسين يجد **للجاحظ** في هذا الموقع "**فالجاحظ** أستاذ الأساتيذ في نقد الكلام، فلا عجب أن عرف قدر القرآن، ولزم حدّه معه[3]**!**"، وكان **الجاحظ** قد "ألف كتابا في الإعجاز باسم (نظم القرآن) إلا أن هذا الكتاب لم يقدر له الحياة مع الناس فضاع فيما ضاع من كتب الجاحظ..[4]" ، وقد ذهب **محمود شاكر** إلى أن **الواسطي المعتزلي** "قرأ كتب الجاحظ ولا سيما كتابه (نظم القرآن)، وهو أول ما أُلِّف في معنى (إعجاز القرآن)[5]".

الخطابي والإعجاز بالنظم:

قال **محمود شاكر**: "هذا الرجل هو الإمام الجليل القدر في أهل السنة، وعند أهل الأدب واللغة: أبو سليمان حمد الخطابي... ولد سنة 319هـ، وتوفي سنة 388هـ، كتب أبو سليمان رسالة سماها (كتاب بيان إعجاز القرآن)[6]".

قال **الخطابي**: "وزعم آخرون أن إعجازه من جهة البلاغة، وهم الأكثرون من علماء أهل النظر[7]" ويرى أنه قد صعب عليهم ضبط طبيعة هذا الإعجاز، فذكر أنهم: "قالوا: وقد يخفى سببه عن البحث ويظهر

---

[1]- الجاحظ عمرو بن بحر أبو عثمان، رسائل الجاحظ، تحقيق وشرح: عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، سنة: 1964، ص: 229/3.
[2]- المصدر نفسه، ص: 229/3.
[3]- عبد الكريم الخطيب، الإعجاز في دراسات السابقين، ص: 178.
[4]- المرجع نفسه، ص: 181.
[5]- محمود محمد شاكر، مداخل إعجاز القرآن، مطبعة المدني، القاهرة، مصر، سنة: 2002، ص: 28.
[6]- محمود محمد شاكر، مداخل إعجاز القرآن، ص: 82.
[7]- الخطابي أبو سليمان بن محمد بن الخطاب، بيان إعجاز القرآن، ص: 24.

أثره في النفس حتى لا يلتبس على ذوي العلم والمعرفة به[1]"، ثم يسعى هو في تفسير ذلك، من خلال تفسير عجز العرب عن الاتيان بمثل القرآن الكريم، فيقول: "وإنما تعذر البشر الاتيان بمثله لأمور منها: أن علمهم لا يحيط بجميع أسماء اللغة العربية (وبألفاظها) التي هي ظروف المعاني والحوامل لها، ولا تدرك أفهامهم جميع معاني الأشياء المحمولة على تلك الألفاظ، ولا تكمل معرفتهم لاستيفاء جميع وجوه النظوم التي يكون ائتلافها وارتباط بعضها ببعض، فيتوصلوا باختيار الأفضل عن الأحسن من وجوهها...[2]" ، ثم يوجز هذا البسط بكثير من الاختزال والدقة، ويأتي بالكلام بإحدى وسائط القصر فيقول: "إنما يقوم الكلام بهذه الأشياء الثلاثة: لفظ حامل، ومعنى به قائم، ورباط لهما ناظم[3]"، ثم يدعوك إلى الخلوص إلى ذلك بنفسك متى كنت متدبرا للغة القرآن الكريم فيقول: "إذا تأملت القرآن وجدت هذه الأمور منه في غاية الشرف والفضيلة حتى لا ترى شيئا من الألفاظ أفصح ولا أجزل ولا أعذب من ألفاظه[4]"، ثم يأتي بدلالة مصطلح النظم بمضمون متقدم جدا ذي بعد أسلوبي لافت وذلك في قوله مستأنفا: "ولا ترى نظما أحسن تأليفا وأشد تلاؤما وتشاكلا من نظمه[5]". ثم لا يلبث بعد هذا التفكيك لمجموعة العناصر التي تحدى بها القرآن الكريم أمة العرب، أمة الفصاحة والبيان قلت لا يلبث أن يأخذ بيد أحدنا حتى يوقفها على نتيجة مفادها: "فتفهم الآن واعلم أن القرآن إنما صار معجزا لأنه جاء بأفصح الألفاظ في أحسن نظوم التأليف مضمنا أصح المعاني[6]"، وبالنظر إلى ما تقدم أمكن رصد جملة من مفردات التحليل الأسلوبي، وقد كانت إفادة عبد القاهر منها جلية واضحة، من هذه المفردات (النظم، الائتلاف، الارتباط، الاختيار، الرابط، الحامل، الناظم...) وهي كما ترى تستخدم اليوم في مناهج التحليل اللغوي.

---

[1]- المصدر نفسه، ص: 24.
[2]- المصدر نفسه، ص: 26.
[3]- المصدر نفسه، ص: 27.
[4]- المصدر نفسه، ص: 27.
[5]- المصدر نفسه، ص: 27
[6]- المصدر نفسه، ص: 27.

الباقلاني و الإعجاز ببديع النظم:

الباقلاني هو: "محمد بن الطيب بن محمد أبو بكر القاضي البصري المتكلم الفقيه، الباقلاني نسبه إلى الباقلي، نشأ في البصرة، ثم رحل إلى بغداد كان من كبار فقهاء المذهب المالكي، ولد سنة: 338هـ وتوفي عام: 403هـ، عرف عنه الذكاء الحاد وقوة لسنه ومجته وسرعة بديهته وإفحانه لخصومه، لقد ذكرت المصادر أن الباقلاني كان في علمه أوحد زمانه..."[1] ، ترك مجموعة من الكتب أهمها لسياق هذا الحديث كتابه (إعجاز القرآن)، يذكر **الباقلاني** بأن وجوه الإعجاز كما قال به أصحابه – يعني الأشاعرة- تظهر من جهات ثلاث:

- أخبار الغيب التي أخبر عنها القرآن الكريم قبل أن تحدث.
- الأخبار عن الأمم الماضية مع أمية الرسول صلى الله عليه وسلم.
- نظمه البديع.

وكان الرجل أكثر تفصيلا للوجه الثالث، قال متحدثا عن لغة القرآن المعجزة: "إنه بديع النظم عجيب التأليف، متناه في البلاغة إلى الحد الذي يعلم عجز الخلق عنه[2]"، و"أنه ليس للعرب كلام مشتمل على هذه الفصاحة والغرابة والتصرف البديع، والمعاني اللطيفة، والفوائد الغزيرة والحكم الكثيرة والتناسب في البراعة على هذا الطول وعلى هذا القدر[3]"، وأن أسلوب القرآن بما تضمنه من هذه الإجراءات الأسلوبية ليس المصطلح الوارد في الشاهد – التصرف البديع- إلا مصطلحا رديفا لمصطلح العدول بما يقتضيه من ممارسات لغوية لافتة قد أوقفت العرب أمة البيان في حالة من الدهشة والانبهار "قد أخذ عليهم منافذ

[1]- للتفصيل ينظر: أحمد جمال العمري، أبو بكر الباقلاني ومفهومه للإعجاز القرآني الناشر الجامعة الإسلامية، المدينة المنورة، العدد: 3، سنة: 1976، السنة التاسعة، ص: 9.
[2]- الباقلاني أبو بكر، إعجاز القرآن، ص: 69.
[3]- المصدر نفسه، ص: 69.

البيان كلها وقطع أطماعهم في معارضته، فظلوا مقموعين... ينفضون رؤوسهم تحت مقارع التحدي والتعيير، وشيوع البلاغة فيهم..."[1].

وقد رصد أحد الدارسين أن **الباقلاني** قد ذكر معاني عشرة فسّر فيها وجه الإعجاز المتمثل في مسألة نظمه للبديع، نعمل على إيرادها موجزة فيما يلي ولمن أراد التفصيل نظر إلى ذلك في المرجع*.

1- إن كلام العرب يدور بين الشعر والرجز والسجع والنثر المرسل، وأما القرآن الكريم فنجده جاء على طريقة مغايرة.
2- إن القرآن نسق واحد في البلاغة ليس بين آياته تفاوت واختلاف.
3- موضوعات القرآن جميعها على ما بينها من اختلاف لا نستطيع القول أن بعضها أفصح من بعض، فكما أن الآيات لا تتفاوت فكذلك موضوعاته.
4- القرآن الكريم مع كثرة موضوعاته فيه من جودة إحكام الرصف... ينقلنا من الموضوع الواحد إلى الآخر دون الشعور بهذا الانتقال... وذلك لما نجده بين آياته ومن إحكام السبك وجودة الرصف والربط.
5- أن نظم القرآن وقع موقعا من البلاغة يخرج عن عادة الجن، فهم يعجزون عن الإتيان بمثله.
6- جودة استعمال الأساليب من إيجاز وإطناب، الاستعارة الحقيقية بما يحقق التناسب والتلاؤم.
7- من الموضوعات التي عرضها القرآن الكريم ما كان مبتكر بكرا لم يعرف قبل ذلك.
8- في القرآن الكريم كل كلمة منه إذا وضعت مع غيرها تجدها درة عقد وحلاوة شهد.
9- إذا نظرت إلى الحروف المنفتحة بها السور القرآنية وجدت أنها شملت على جميع الصفات.

[1]- المصدر نفسه، ص: 6.

10-أن القرآن مع حالة من بلاغة إلا أنه سهل ميسر... سبيله ميسر وصعبه مفسر، "فهو خارج عن الوحشي المستكره والغريب المستنكر، وعن الصنعة المتكلفة وجعله قريبا إلى الإفهام، يبادر معناه لفظه إلى القلب، ويسابق المغزى منه عبارته إلى النفس[1]".

وربما انتهينا مع **الباقلاني** إلى مسألة جوهرية في طريق التأكيد على طبيعة الإعجاز، الإعجاز في حقيقته البلاغية البيانية التي ينسجم معها التحدي مع ما تملكه العرب من أقوى ما يميزها ألا وهو البيان مناط القول بمصطلح النظم الناظم لمختلف صنوف الجمال الأسلوبي، هذه المسألة هي ما يذكره في قوله: "ومتى علم البليغ المتناهي في صنوف البلاغات عجزه عن القرآن، علم عجز غيره عنه[2]"، فإذا الإشهاد البليغ رغبة في تحقيق العجز في أعلى مستوياته، الأمر الذي يهيئ بعد ذلك لعبد القاهر أن يعلي من منسوب مقاربته لعناصر الجمالية في التعبير القرآني والأمر ليس بخاف فيما أفاده الباقلاني ذاته من الرماني ومن **الخطابي** الذين سبقوه في ذات الاتجاه.

ربما بقي أن نسجل أن **الباقلاني**، وقد شخص طبيعة الإعجاز في لغة القرآن، وذهب في التّوجه الذي يخدم التأصيل لنظرية النظم إلا أن من الدارسين من لامه على تقصير في مسعى الإبانة والكشف عن مناط الجمالية في تفاصيل الصيغ والتراكيب والصور، الأمر الذي يعمل الجرجاني على استكماله ولا يقف مثله في حدود الإشادة والمدح.

*فضل حسن عباس، إعجاز القرآن الكريم، الجامعة الأردنية، عمان، الأردن، سنة: 1991، ص: 54 وما بعدها.

[1]- الباقلاني أبو بكر، إعجاز القرآن، ص: 71.

[2]- المصدر نفسه، ص: 26

المحاضرة الرابعة: عبد القاهر الجرجاني ونظرية النظم

إفادة عبد القاهر ممن سبقه إلى هذا التوجه:

لقد أسلفنا بما تقدم وكان القصد الإبانة عن طبيعة الخلفية التي أصدر عنها **الجرجاني** في حديثه الناضج المتقدم الدقيق عن نظريته في النظم التي سوف تكتمل لديه تنظيرا وتطبيقا، يتحدث **الرافعي** مصوّبا التراتبية التاريخية في الحديث عن هذا الاتجاه بالقول بالإعجاز في الأسلوب القرآني إلى البيان: "أما الرأي المشهور في الإعجاز البياني الذي ذهب إليه **عبد القاهر الجرجاني**... فكثير من المتوسمين بالأدب يظنون أنه أول من صنف فيه ووضع من أجله كتابه المعروف، وذلك وهم، فإن أول من جوّد الكلام في هذا المذهب وصنف فيه، **أبو عبد الله محمد بن يزيد الواسطي** المتوفي سنة: 306هـ، ثم **أبو عيسى الرماني** المتوفي سنة: 382هـ، ثم **عبد القاهر**..."[1] ، بل من الدارسين من يحيل إلى ما قبل ذلك، حيث **عبد الله بن المقفع** الذي قال مشيرا إلى ما يفيد بدلالة النظم البلاغية: "فإذا خرج الناس من أن يكون لهم عمل أصيل وأن يقول قولا بديعا، فليعلم الواصفون المخبرون أن أحدهم، وإن أحسن وأبلغ، ليس زائدا على أن يكون كصاحب فصوص وجد ياقوتا وزبرجدا ومرجانا، فنظمه قلائد وسموطا وأكاليل ووضع كل فص موضعه، وجمع إلى كل لون شبهه وما يزيده بذلك حسنا، فسُميَ بذلك صانعا رفيقا..."[2].

لم يكن القصد من إيراد هذا الشاهد إلا الإفصاح عن مسألة المرجعية بالنسبة للتوجه الذي سلكه **الجرجاني**، ثم لإقرار مسألة صعوبة الإحاطة بذلك لطبيعة البحث التي لا تستوعب ذلك الكم الهائل من الدراسات، وربما ما كان لولا هذا السبب أن نغفل الحديث عن **الرماني**، وعن **القاضي عبد الجبار** الذي كان صاحب أثر بارز بيّن في التمهيد لظاهرة النظم وعلاقتها بتفسير السر في الإعجاز القرآني، ولأن المقام لا يسمح ببسط هذه المسألة ومدى التأثير الذي أحدثته عند مقاربات **عبد القاهر** رأينا تسجيل

---

[1]- الرافعي مصطفى صادق، إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، دار الكتاب العربي ط/8، بيروت، لبنان، سنة: 2005، ص: 103.
[2]- ابن المقفع عبد الله، (142هـ)، الأدب الصغير، قرأه وعلق عليه: وائل بن حافظ بن خلف، دار الأرقم الإسكندرية، مصر، (د.ت)، ص: 22.

ملاحظة أحد أكبر الدارسين لهذه القضية، إذ يقول: "عرضنا لرأي **عبد القاهر** ونظريته في الإعجاز، وصورنا نظرية **عبد الجبار** وما يراه فيه ومن خلال المقارنة بين كلامهما السابق والمشار إليه، نجد أن الفرق بينهما ينحصر في الفرق بين الإجمال في الفكرة والتفصيل فيها...، **فعبد الجبار** كان رائدا سابقا، وعبد القاهر كان موضحا ومبينا..."[1] ، لقد ذكر هذا في معرض حديثه عن المدى الذي وصل إليه **عبد القاهر** في تأثره **بعبد الجبار** ولا يبقي **عبد الفتاح لاشين** المسألة في حدود الملاحظة العامة، بل يقدم كثيرا من الأمثلة منها هذا التعريف الذي يعطيه **عبد الجبار** للفصاحة: "إن الفصاحة لا تظهر في أفراد الكلام، وإنما تظهر في الكلام بالضم على طريقة مخصوصة..."[2] ، وفي سياق الحديث عن هذا التأثير الذي يظهر بصورة جلية في مباحث نظرية النظم يتساءل الباحث: "من نبه بتعريفه المجمل للفصاحة على مكان الدفين المخبوء؟ ومن الذي نبه الطريق المطلوب، ووضع القاعدة ليمكن البناء عليها؟[3]".

لا نريد لمثل هذه الملاحظات أن تطول ولكن كان لا بد من نموذج عنها حتى نتعرف على المرجعيات المؤسسة لنظرية النظم عند **الجرجاني**، ويستقر في الأذهان أنها محصلة لتراكم خبرات معرفية تفاعلت لعشرات السنوات وساهم في بلورتها خلق عظيم من أهل اللغة والبلاغة، ومن الفلاسفة والنقاد وأهل الكلام حتى تعرف في النهاية قمة نضجها عند **الجرجاني**، "ولو مضينا نستعرض فكرة النظم لرأينا بذورها فيما كتبه النحاة والبلاغيون و مؤلفوا كتب إعجاز القرآن، بل لوجدنا غير العرب... اتخذها عبد القاهر سبيلا للوصول إلى فكرته التي أقام عليها مسألة الإعجاز[4]".

لقد رصد ذلك الدارسون فلاحظوا أن **أرسطو** "عقد في كتابه (فن الشعر) فصلا تكلم فيه على أقسام الكلمة والفروق بين أقسامها والمقاطع والحروف والأصوات... التي رآها ضرورية في البلاغة[5]"، وتحدث في

---

[1]- عبد الفتاح لاشين، بلاغة القرآن في آثار القاضي عبد الجبار وأثره في الدراسات البلاغية، دار الفكر العربي، مطبعة دار القرآن، القاهرة، مصر، سنة: 1978، ص: 508.
[2]- المرجع نفسه، ص: 509.
[3]- المرجع نفسه، ص: 512.
[4]- أحمد مطلوب، عبد القاهر الجرجاني بلاغته ونقده، دار العلم للملايين، ط/1، بيروت لبنان، سنة: 1973، ص: 51.
[5]المرجع نفسه، ص: 51.

"المقالة الثالثة من كتاب (الخطابة) عن مراعاة الروابط بين الجمل والأسلوب المفصل والأسلوب المقطع وحذف أدوات الوصل والتكرار...[1]".

والأمر ذاته وجد عند الهنود وذلك "ما ذكره **الجاحظ** في (البيان والتبيين) عن الصحيفة الهندية وما جاء فيها من أصول تتصل بالخطيب وصفاته وبالأسلوب..[2]". وبالاطراد في الحديث عن المرجعيات المؤسسة لفكرة القول بالنظم يتسع مجال القول، فحسبنا هذا القدر، ولمن طلب المزيد ففي المصادر التراثية والحديثة والمعاصرة ما يفي بالقدر ويزيد.

النظم والفاعلية الجمالية:

يسوق الباحث **أحمد مطلوب** ملاحظة مهمة تلقي بكثير من الضوء على مسألة النظم عند **الجرجاني** بل نراها تختزلها بكثير من الدقة، والأمر متعلق بطبيعة نظرة **عبد القاهر** للنحو، على نحو مختلف دلّ على حس جمالي، مع تقدير **عبد القاهر** الكبير لمسألة النحو عامة يقول: "إن نظرة **عبد القاهر** إلى النحو كما صورها في (دلائل الإعجاز) نقلت هذا العلم من الاهتمام بأواخر الكلمات إلى جو رحب يفيض حركة وحياة وقد استطاع بهذه النظرة الدقيقة أن يشرح فكرة النظم التي كانت سائدة[3]".

إذا كان المرجع الأساس في شرح فكرة النظم تنطلق من خلفية فهم متقدم لقضايا النحو، لذلك وجدنا تعريفه له على المنوال التالي:

يقول في دلائل الإعجاز: "اعلم أن ليس (النظم) إلا أن تضع كلامك الوضع الذي يقتضيه (علم النحو) وتعمل على قوانينه وأصوله، وتعرف مناهجه التي نهجت فلا تزيغ عنها، وتحفظ الرسوم التي رسمت لك فلا تخل بشيء منها[4]"، فضمان الصحة مكفول بما لمعيرة الضابط النحوي من القدرة على حراستك من

---

[1]المرجع نفسه، ص: 51.
[2]- المرجع نفسه، ص: 51.
[3]- المرجع نفسه، ص: 51.
[4]- الجرجاني أبو بكر عبد القاهر، دلائل الإعجاز في علم المعاني، ص: 81.

الوقوع في الزلل، ذلك هو الأساس الذي يحفظ الحد الذي يجب ألاّ تنزل عليه، ثم يأتي مع النظم تحقيق المستوى الثاني الشعري الفني المحقق لعناصر التأثير، بما يعلي من شأن الخطاب الإبداعي الذي يتكفل بالمنزع الجمالي الذي بدوره يتحقق بفعل حيوية الاستعمال الخاص لصيغ اللغة وتراكيبها بما يضمن مطواعية هذه اللغة أو تلك في هذا المستوى المبتغى والمراد.

إنه فهم متقدم سوف تقول به الأسلوبيات بعد ذلك عندما تحدثت عن المستوى المعياري، والمستوى الفني من خلال المقولة التي تفرق بين البنيتين السطحية والعميقة، وكيف يجب أن تكون لكل وحدة منها قراءتها بحثا عن الفارق الجمالي، يقول أحد الدارسين بما يؤشر على ذلك: "تمثل الحقيقة الأداء المعياري للغة ويمثل المجاز عدولا عن هذه المعيارية، وهو عدول لا ينتهك قواعد اللغة وخصوصيتها بل ينبثق عنها، ومنتظم في إطار ما تتيحه اللغة من إمكانيات تعبيرية تعطي المعنى ثراء دلاليا[1]".

ويظل **الجرجاني** ملحا على ضرورة فقه إيجابية الدور الذي يلعبه النحو عندما يعيه الناس على الوجه الذي ينبغي أن يكون عليه الإحساس المتذوق والنزعة التأملية، قال: "واعلم أنه لا يصادف القول في هذا الباب موقفا من السامع، ولا يجد لديه قبولا، حتى يكون من أهل الذوق والمعرفة[2]"، هل كان **الجرجاني** قاصدا تقديم شرط الذوق على المعرفة، أما الرأي فإنه أراد ذلك تأسيسا نفسيا للتعرف على دقائق أمارات الإعجاز الأسلوبي في لغة القرآن الكريم، ألم يعتبرها **الباقلاني** محتاجة إلى "نظر دقيق وبحث لطيف، حتى يقع على الجلية ويصل إلى الطلب[3]".

بل **الجرجاني** يعتبر مسألة الذوق في تحسس جليل الصيغ والتراكيب لجليل المعاني الشرط الأساس يظهر ذلك في تخصيصه بمبحث عنوانه (إدراك البلاغة بالذوق وإحساس النفس) وإنما صار **عبد القاهر** الذي

[1]- عبد الله عبد الرحمن بانقيب، مناهج التحليل البلاغي عند علماء الإعجاز، ص: 307.
[2]-الجرجاني أبو بكر عبد القاهر، دلائل الإعجاز في علم المعاني، ص: 291.
[3]- الباقلاني أبو بكر، إعجاز القرآن، ص: 255.

انتهى إليه بفهم مسائل النحو بمثل هذا الوعي الجمالي، وقد كان قد فسد لدى الكثيرين كما هي ملاحظة أحمد مطلوب المنوه بها سابقا.

فالنظم عند **عبد القاهر** منطلقا من هذه الخطة هو البناء والسبك والترتيب والضم والتأليف تبعا لمعطى القواعد النحوية، يقول: "والنظم والترتيب في الكلام كما بيّنا، عمل يعمله مؤلف الكلام في معاني الكلام لا في ألفاظها، وهو بما يصنع في سبيل من يأخذ الأصباغ المختلفة فيتوخى فيها ترتيبا يحدث عنه ضروب من النقش و الوشى[1]"، وحتى يدلل على فاعلية المبدع وسلطته على اللغة في ضوء الفهم الجمالي لمعطياتها الإجرائية، ومدى قدرته على التصريف، حيث تكون في مستوى الاستعمال المتفرد البدائل أكثر رحابة، يذكر: "فكما أنك ترى الرجل قد تهدّى في الأصباغ التي عمل منها الصورة والنقش التي عمل في أنفس الأصباغ وفي مواقعها ومقاديرها وكيفية مزجه لها وترتيبه إياها[2]". ذلك صنيع المبدع الحاذق لفنون القول، وهو بهذا ليس كغيره من الأصحاب: "إلى ما لم يتهدّ إليه صاحبه[3]"، وبذلك فقط أي بفعل إيجابية التعامل مع اللغة بواسطة قيم المسامحة والعدول التي تتيحها "جاء نقشه من أجل ذلك أعجب، وصورته أغرب، كذلك حال الشاعر والشاعر في توخيهما معاني النحو ووجوهه التي علمت أنها حصول النظم[4]".

يتحدث **الجرجاني** بعد الإحالة على أن العنصر المكين الذي يشكل بؤرة الجمالية إنما يحصل بالفهم والإدراك الذي أسلف لقضايا النحو خاصة، وقضايا اللغة عامة، ثم ضرورة الإيمان بأريحية الاستعمال المتفرد للغة بما ينسجم مع الحالات الشعورية لمستخدمها، ساعتها فقط تحصل عند **عبد القاهر** عبقرية اللغة المفضية إلى اللطيفة والمزية: "لا يعلم أن هاهنا دقائق وأسرار طريق العلم بها الروية والفكر، ولطائف مستقاها العقل وخصائص معان ينفرد بها قوم قد هدوا إليها، ودلوا عليها، وكشف لهم عنها... وأنها

[1]- الجرجاني أبو بكر عبد القاهر، دلائل الإعجاز في علم المعاني، ص: 359.
[2]- المصدر نفسه، ص: 88.
[3]- المصدر نفسه، ص: 88.
[4]- لمصدر نفسه، ص: 88.

السبب في أن عرضت المزية في الكلام، ووجب أن يفضل بعضه بعضا... حتى ينتهي الأمر إلى الإعجاز[1]".

ولما يقع التجاوز في الاستعمال الخاص للغة، ضمن إطار توخي قواعد النحو: "(تكثر المزية)[2]" ثم يكرس **عبد القاهر** فكرته هذه منوها بالخصوصية في بناء الأساليب: "بقى أن تُعْلِمونا مكان المزية في الكلام وتصفوها لنا[3]"، فيحيلك في الإجابة على المفهوم العام للفصاحة من حيث هي كل متكامل يتضمن عنده مختلف الأبعاد الإجرائية لظاهرة النظم والإجابة بأن: "تضع اليد على الخصائص التي تعرض في نظم الكلام وتعدّها واحدة واحدة، وتسميها شيئا شيئا وتكون معرفتك معرفة الصانع الحاذق الذي يعلم علم كل خيط من الإبر سيم الذي في الديباج... وإذا نظرت إلى (الفصاحة) هذا النظر، وطلبتها هذا الطلب احتجت إلى الصبر على التأمل، ومواظبة على التدبر...[4]".

ذلك إذن هو مفهوم الفصاحة عند **عبد القاهر**، وكيف جعل منه مناط إجابة السائل الذي يود التّعرف على مكامن الجمالية في الخطاب الفني، ثم رأيت كيف يبشر بجملة ما يعترضك من مشاق في سبيل ذلك إنما كان القصد منه أن يصل به إلى: "موضع الأستاذية[5]".

لعل في مثل هذا التوجيه ما تتحقق به الموضوعية، وأن أمر النقد أمر احتراف، وليس الشأن متروكا للمزاجية والانفعال، ولذلك كان: "اتجاه **عبد القاهر** إلى النقد الموضوعي واتخاذه مذهبا له أعطى بحوثه ثراء علميا لم نعهده عند باحث قبله، ذلك لأن بحثه عن أسباب الجمال وإيمانه بإمكانية الوقوف عليها

[1]- المصدر نفسه، ص: 7.
[2]- المصدر نفسه، ص: 35.
[3]- المصدر نفسه، ص: 36.
[4]- المصدر نفسه، ص: 37.
[5]- المصدر نفسه، ص: 36.

بل بضرورة ذلك جعلت نظرته النقدية ذات أبعاد شاملة، فلم يقف بالنقد مثل كثير ممن سبقه عند أحكام عامة وعبارات فضفاضة لا يمكن بها إدراك ما في الكلام من حسن ومزية..."[1].

معاني النحو:

يظل **عبد القاهر** متحدثا عن النظم حتى عدّ بعضهم ذلك تكرار منه، بل منهم من رأى من شأن ذلك أن يحدث نوعا من الإرباك بالنسبة لمتلقيه، بخلاف هؤلاء وأوليك، رأى آخرون إنما فعل **عبد القاهر** ذلك لحساب التأكيد ومحاولة الإضافة، فإذا شئنا وقفنا عند كلامه عن النظم من حيث صحته وفساده، مرجعا أمر ذلك في انسجام تام مع تعريفه السابق إلى توخي معاني النحو أو الخروج عنها: "فلا ترى كلاما قد وصف بصحة نظمه أو فساده، أو وصف بمزية وفضل فيه، إلا وأنت تجد مرجع تلك الصحة وذلك الفساد وتلك المزية وذلك الفضل إلى معاني النحو وأحكامه ووجدته يدخل في أصل من أصوله، ويتصل بباب من أبوابه[2]".

يشفع **عبد القاهر** هذه الخلاصة بجملة من الأمثلة يقول: "ويكفيك أنهم قد كشفوا عن وجه ما أردناه حيث ذكروا فساد (النظم) فليس من أحد يخالف في نحو قول **الفرزدق**:

وما مثله في الناس إلا مُمَلَّكا أبو أمه حي أبوه يقاربه

ثم يورد مجموعة من مثل هذا ثم يعلق كاشفا سبب الفساد، فيقول: "وفي نظائر ذلك مما وصفوه بفساد النظم، وعابوه من جهة سوء التأليف، أنّ الفساد والخلل كانا من أن تعاطي الشعر ما تعاطاه من هذا الشأن على غير صواب وصنع في تقديم أو تأخير، أو حذف و إضمار، أو غير ذلك مما ليس له أن يصنعه ما لا يسوغ ولا يصح على أصول هذا العلم، وإذا ثبت أن سبب فساد واختلاله، وأنْ لا يُعمل

[1]- سيد عبد الفتاح حجاب، نهج عبد القاهر بين الموضوعية والذاتية، مجلة كلية اللغة العربية بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الرياض، العدد: 10، سنة: 1980.

[2]- الجرجاني أبو بكر عبد القاهر، دلائل الإعجاز في علم المعاني، ص: 83.

بقوانين هذا الشأن، ثبت أن سبب صحتّه أن يعمل عليها ثم إذا ثبت أنّ مستنبط صحته وفساده من هذا العلم[1]"، ويرتبط ذلك بوجوب تحصيل المزية القائلة دائما عنده بعنصر الجمالية في الإبداع، وهي محصلة النظم مكيَّف بحسب ما اشترطه: "ثبت أنّ الحكم كذلك في مزيته والفضيلة التي تعرض فيه، وإذا ثبت جميع ذلك، ثبت أن ليس هو شيئا غير توخي معاني هذا العلم وأحكامه فيما بين الكلم، والله الموفق للصواب[2]".

التعليق والبعد الإجرائي:

يذكر **عبد القاهر** أقسام الكلام وما يحكمها من روابط فيقول: "معلوم أن ليس النظم سوى تعليق الكلم بعضها ببعض، وجعل بعضها بسبب من بعض، والكلم ثلاث، اسم وفعل وحرف، وللتعليق فيما بينها طرق معلومة، وهو لا يعدو ثلاثة أقسام، تعلق اسم باسم، وتعلق اسم بفعل، وتعلق حرف بهما[3]".

أما التعليق الوارد في هذا الشاهد، فهو: "نظام العلاقات[4]"، وهو لا يتحقق إلا بإجرائية مضبوطة هي قوانين القاعدة النحوية، وهذا النظام هو: "السلك الذي تنظم به الكلم – في هذا التعليق- ما هو إلا (معاني النحو)، ومن هنا تعلم أن تعريف (يعني عبد القاهر) للنظم بأنه (توخي معاني النحو) وهو بيان للشيء بآلته[5]". وأن مسألة النظم مرهونة لتطبيقات هذا المصطلح – التعليق- يقول: "أن لا نظم في الكلام ولا ترتيب، حتى يعلّق بعضها ببعض، ويبنى بعضها على بعض، وتجعل هذه بسبب من تلك"، وهذا عنده بديهة كان على كل دارس الانطلاق منها بعد التسليم بها[6]"، "وهذا ما لا يجهله عاقل ولا يخفى على أحد من الناس[7]".

---

[1]- المصدر نفسه، ص: 84.
[2]- المصدر نفسه، ص: 84.
[3]- الجرجاني أبو بكر عبد القاهر، دلائل الإعجاز في علم المعاني، تحقيق: ياسين الأيوبي المكتبة العصرية، ط/1، ص: 54
[4]- الحسيني ضياء الدين فاضل، معاني النحو الجرجانية، أروقة للدراسات والنشر ط/1 عمان، الأردن، سنة: 2010، ص: 53.
[5]- المرجع نفسه، ص: 53.
[6]- الجرجاني أبو بكر عبد القاهر، دلائل الإعجاز في علم المعاني، تحقيق: محمود محمد شاكر، ص: 55.
[7]- المصدر نفسه، ص: 55.
*ينظر على سبيل المثال دروس د/إبراهيم، شرح دلائل الإعجاز دروس مباشرة من جامع الأزهر الشريف.

ثم يفسّر **عبد القاهر** طبيعة منظومة التعليق التي تصلح كما ذهب إلى كثير من الدارسين*، أنها تصلح أصولا مشتركة تنتظم تحتها مختلف مفردات النحو العربي، والشيخ ذاته يمهّد لما سوف يطرحه في شأن هذا الأمر بقوله: "هذا كلام وجيز يطّلع به الناظر على أصول النحو جملة، وكل ما به يكون النظم دفعة وينظر فيه في مرآة تريه الأشياء المتباعدة الأمكنة قد التقت له، حتى رآها في مكان واحد[1]".

وهي كما نرى ملاحظات منهجية بالغة الأهمية، وبالغة الأثر لمن انبرى للتعرف على الأصول الجامعة لما تفرق من قضايا القواعد النحوية وتشعب.

يقول: "فبنا أن ننظر إلى التعليق فيها والبناء، وجعل الواحدة منها بسبب من صاحبتها، ما معناه وما محصوله؟ وإذا نظرنا في ذلك، علمنا أن لا محصول لها غير أن تعمد إلى اسم فتجعله فاعلا لفعل أو مفعولا أو تعمد إلى اسمين فتجعل أحدهما خبرا عن الآخر أو تُتبع الاسم اسما على أن يكون الثاني صفة للأول، أو توكيدا له، أو بدلا منه أو تجيء باسم بعد تمام كلامك على أن يكون الثاني صفة أو حالا أو تمييزا، أو تتوخى في كلام هو لإثبات معنى، أن يصير نفيا أو استفهاما أو تمنيا، فتدخل عليه الحروف الموضوعة لذلك أو تريد في فعلين أن تجعل أحدهما شرطا في الآخر، فتجيء بهما بعد الحرف الموضوع لهذا المعنى، أو بعد اسم من الأسماء التي ضمنت معنى ذلك الحرف، وعلى هذا القياس[2]".

وللتمثيل لهذه الملاحظات النظرية المؤسسة يقول: "وذلك أنا لا نعلم شيئا يبتغيه الناظم بنظمه غير أن ينظر في وجوه كل باب وفروقه، فينظر في (الخبر) إلى الوجوه التي تراها في قولك: (زيد منطلق، وزيد ينطلق، وينطلق زيد، ومنطلق زيد، وزيد المنطلق، والمنطلق زيد، وزيد هو المنطلق)، وفي قولك: (إن تخْرُجْ أَخْرُجْ، وإن خرجتَ خرجتُ، وإن تخرجْ فأنا خارج، وأنا خراج إن خرجتَ، وأنا إن خرجتَ خارج)، وفي الحال إلى الوجوه التي تراها في قولك: (جاءني زيد مسرعاً، وجاءني يسرعُ، وجاءني وهو مسرعٌ أو هو يسرعُ، وجاءني وقد أسرعَ، وقد أسرعَ) فيعرف كل من ذلك موضعه، ويجيء به حيث ينبغي له، وينظر في

[1]- الجرجاني أبو بكر عبد القاهر، دلائل الإعجاز في علم المعاني، تحقيق: ياسين الأيوبي، ص: 54
[2]- الجرجاني أبو بكر عبد القاهر، دلائل الإعجاز في علم المعاني، تحقيق: محمود محمد شاكر، ص: 55.

الحروف التي تشترك في معنى، ثم تنفرد كل واحد منها بخصوصية في ذلك المعنى، فيضع كلا من ذلك في خاص معناه... وينظر في الجمل التي تسرد، فيعرف موضع الفصل فيها من موضع الوصل... ويتصرّف في التعريف والتنكير، والتقديم والتأخير... وفي الحذف، والتكرار والإضمار، والإظهار، ذلك جميعه تحقيقا للغاية التي ليست إلا واحدة مما يستهدف بالنظم على منوال القاعدة النحوية، فيقول: "فيصيب بكل ذلك مكانه ويستعمله على الصّحة وعلى ما ينبغي له"[1].

التعليق والخلفية النفسية:

وفي ذات الاتجاه المتعلق ببناء الأساليب، وإضافة إلى منظومة التعليق عند **عبد القاهر** بمفرداتها النحوية، وجب أن نسجل قناعته التي ظل يلح عليها وربما وقعت الإشارة إليها في الحديث عن مسألة اللفظ والمعنى، ذلك أن **الجرجاني** يذكر: "لا يتصور أن تعرف للفظ موضعا من غير أن تعرف معناه، ولا أن تتوخى في الألفاظ من حيث هي ألفاظ ترتيبا ونظما، وأنك تتوخى الترتيب في المعاني وتعمل الفكر هناك، فإذا تم لك ذلك أتبعتها الألفاظ و قفوت بها آثارها، وأنك إذا فرغت من ترتيب المعاني في نفسك... وأن العلم بمواقع المعاني في النفس، علم بمواقع الألفاظ الدالة عليها في النطق[2]"، و"أن الكلم تترتب في النطق بسبب ترتب معانيها في النفس[3]"، والأمر عند **الجرجاني** يحتاج إلى تبصر وهو شديد الارتباط بمسألة التعليق في بناء التراكيب "واعلم أن مما هو أصل في أن يدق النظر، ويغمض المسلك، في توخي المعاني التي عرفت: أن تتخذ أجزاء الكلام ويدخل بعضها في بعض، ويشتد ارتباط ثان منها بأول، وأن تحتاج في الجملة إلى أن تضعها في النفس وضعا واحدا، وأن يكون حالك فيها حال الباني يصنع بيمينه هاهنا في حال ما يصنع بيساره هناك، نعم وفي حال ما يبصر مكان ثالث ورابع يضعهما بعد الأولين..[4]".

---

[1]- المصدر نفسه، ص: 83.
[2]-المصدر نفسه، ص: 83.
[3]- المصدر نفسه، ص: 54
[4]- المصدر نفسه، ص: 56

نعم يظل **عبد القاهر** يؤكد هذا المعنى ومعه يتأكد أن البناء الأسلوبي القائم على منظومة التعليق الإجرائية التي وقفنا عليها، إنما هو انعكاس إيجابي لحالة النفس المبدعة للكلام، قد صارت العلاقة واضحة وأن التعليق الحاصل للألفاظ في مختلف تمظهراته (الحذف، الذكر، التقديم، التأخير، الفصل، الوصل، أضرب الخبر، أوجه الاستعمال المعدول للأساليب...) جميعها مردها إلى الحالة النفسية الشعورية المنتجة لها، وها هو ذا **الجرجاني** يزيد المسألة توضيحا من خلال مقاربة البنية في صيغة اللفظة المفردة في مقابل نظم الكلم: "وذلك أن نظم الحروف هو تواليها في النطق، وليس نظمها بمقتضى عن المعنى، ولا الناظم لها بمقتضى في ذلك رسما من العقل... فلو أن واضع اللغة كان قد قال (ربض) مكان (ضرب) لما كان في ذلك ما يؤدي إلى فساد وأما نظم الكلم فليس الأمر فيه كذلك، لأنك تقتفي في نظمها المعاني، وترتبها على حسب ترتب المعاني في النفس، فهو إذن نظم يعتبر فيه حال المنظوم بعضه مع بعض، وليس هو النظم الذي معناه ضمُّ الشيء إلى الشيء كيف جاء واتفق. ولذلك كان عندهم نظيرا للنسخ والتأليف والصياغة والبناء والوشي والتجبير وما أشبه ذلك، مما يوجب اعتبار الأجزاء بعضها مع بعض، حتى يكون لوضع كل حيث وضع علّة تقتضي كونه هناك[1]".

لقد اكتملت القناعة عند **عبد القاهر** أن البنية اللغوية الأسلوبية تحقق الانسجام الصادق بين انفعالات النفس الشعورية، وبين طبيعة الإجراء الأسلوبي في مستوى بناء الأساليب، وأن ضمان ذلك هي مجموعة قواعد التعليق التي تسعف المبدع عندما تمكنه من لغة مطواعة تستجيب لانفعالاته من ناحية، ومن ناحية تؤمن الكلم من أن يظل صحيحا مستجيبا لمقولات النحو الضامة لصحته، وبمثل هذه المزاوجة فقط، قالت مختلف المدارس النقدية اللغوية والأسلوبية، وقل أننا نجد ذلك واضحا في الدراسات اللسانية.

[1]- المصدر نفسه، ص: 93.

من تطبيقات عبد القاهر:

يخلص **ضياء الدين فاضل** مما سبق أن معاني النحو الوارد فيما سبق من ملاحظات **الجرجاني**: "أن (معاني النحو) هي كون الكلمة قد وقعت فاعلا أو مفعولا و حالا أو شرطا وهكذا، إلا أن هذه النعوت ما هي إلا أحوال للكلم تكون عليها حين تحلّ موقعا إعرابيا أو مقاما نحويا، وهي كما ذكر الشيخ صور لوجوه تعلق يفيدها مقام المفعول، وهكذا الإضافة والحالية والشرطية والنفي والاستثناء التي تفيدها تلك الأحوال والمقامات[1]".

ثم لا يلبث الباحث بعد البعد المرتضى لمصطلح معاني النحو عند **عبد القاهر** إلا أن يشير إلى طبيعة العلاقة عند **الجرجاني** بينه وبين مسألة النظم، فيقول: "من المعلوم القطعي عند من درس نظرية النظم الجرجانية أن فكرة النظم هي القاعدة الكبرى فيها والركن الأعظم منها... فلا نبالغ هنا إن قلنا: إن مفهوم (معاني النحو) يشكل الجزء الذي يستند إليه مفهوم (النظم)، وأن فكرة النظم تقوم على فكرة (معاني النحو) فلا تعرف بدونها ولا تكتمل بسواها...[2]" ، بل اعتبر أن الحديث عن معاني النحو ما هو "إلا تفصيل للحديث الأول –النظم– والكلام في معاني النحو هو كلام في عملها وفاعليتها في نظم الكلام وتأليفه ثم في أثرها في ظهور البلاغة في الكلام ورجوعه إليها[3]".

يشفع **عبد القاهر** ما سبق وأن أشار إليه من أفكار بعديد النماذج، ويرى أنه ليس صائبا المرور إلى بحث دلالات الكلم بدونها، وربما يرى ذلك رغم إلحاحه الشديد على أن يقنع بصحة وجهة نظره، ثم وأنت تقرأ تلك الأفكار في دلائل الإعجاز يتملكك شعور، أن عبد القاهر في موضع رد مخالف له حاصل حقيقة

---

[1]- المصدر نفسه، ص: 49.
[2]- المصدر نفسه، ص: 54.
[3]- المصدر نفسه، ص: 65.
*امرؤ القيس بن حجر بن حارث الكندي، ديوان امرؤ القيس، اعتنى به: عبد الرحمن المصطلاوي، دار المعرفة، بيروت، لبنان، ط/2، سنة: 2004، ص: 14.

أو مفترض، لذلك كانت حاجته إلى كثير من الشواهد العملية تبيانا لما قصد إليه والتي منها: نظرته في بيت **امرئ القيس***:

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل بسقط اللّوى بين الدَّخول فحوْمَلِ

"(من نبك قفا حبيب ذكرى منزل)، ثم هل يتعلق منك فكر بمعنى كلمة منها؟[1]"، والملاحظ أن السؤال في مثل هذا الموضع له ما بعده.

يقول **عبد القاهر** مجيبا يرسي دعامات ما ذهب إليه: "واعلم أني لست أقول: إن الفكر لا يتعلق بمعاني الكلم المفردة أصلا، ولكن أقول إنه لا يتعلق بها مجردة من معاني النحو ومنطوقا بها على وجه لا يتأتى معه تقدير معاني النحو وتوخّيها فيها كالذي أريتك، وإلا فإنك فكرت في الفعلين أو الاسمين تريد أن تخبر بأحدهما عن الشيء أيّهما أولى أن تخبر به عنه وأشبه بغرضك، مثل أن تنظر أيّهما أمدح وأذم، أو فكرت في الشيئين تريد أن تشبه الشيء بأحدهما أيهما أشبه به كنت قد فكرت في معاني أنفس الكلم، إلا أن فكرك ذلك لم يكن إلا من بعد أن توخّيت فيها معاني النحو، وهو أن أردت فيه مدحا أو ذما أو تشبيها أو غير ذلك من الأغراض، ولم تجئ إلى فعل أو اسم فكرت فيه فردا ومن غير أن كان لك قصد أن تجعله خبرا أو غير خبر فاعرف ذلك[2]".

وإذا شئنا أن ندعم قراءة **عبد القاهر** بما يؤيدها من النقد المعاصر حتى يُطمئنّ لنفاذ نظرته وقدرته على المقاربة المنتجة من خلال بحثه عنصر الجمالية المتوخاة من الإجراء الأسلوبي، نظرنا فيما يلي، وقد كان الحديث عن جمالية الحذف في بيت من الشعر **للبحتري**. يقول **عبد القاهر** منوها بإجرائية الحذف وبعده الأسلوبي المفضي إلى استفزاز قدرات المتلقي حتى يطلب مزيدا من الفهم: "أن الذي قلت في شأن

[1]- الجرجاني أبو بكر عبد القاهر، دلائل الإعجاز في علم المعاني، ص: 40.
[2]- المصدر نفسه، ص: 41.

الحذف وفي تفخيم أمره، والتنويه بذكره، وأنّ مأخذه يشبه السحر، ويبهر الفكر..."[1] ، ثم يمثل لذلك بقول البحتري "وهو يذكر محاماة الممدوح عليه، وصيانته له ودفعه نوائب الزمان عنه:

وكم ذدت عنّي من تحامل حادث وسورة أيام حزَزْنَ إلى العظمِ

الأصل: لا محالة حززن اللحم إلى العظم، إلا أن مجيئه به محذوفا وإسقاطه له من النطق، وتركه في الضمير، مزية عجيبة وفائدة جليلة وذلك أن من حذق الشاعر أن يوقع المعنى في نفس السامع إيقاعا يمنعه به من أن يتوهم في بدء الأمر شيئا غير المراد، ثم ينصرف إلى المراد، ومعلوم أنه لو ظهر المفعول فقال: وسورة أيام حززن اللحم إلى العظم، لجاز أن يقع في وهم السامع إلى أن يجيئ إلى قوله إلى العظم، أنّ هذا الحزّ كان في بعض اللحم دون كله وأنه قطع ما يلي الجلد ولم ينته إلى ما يلي العظم... ويتصور في نفسه من أول الأمر أن الحزّ مضى في اللحم حتى لم يرده إلا العظم" ثم ينتهي بنا إلى تأكيد صدقية معالجته فيذكر: "أفيكون دليل أوضح من هذا وأبين وأجلى في صحة ما ذكرت لك، من أنك قد ترى الترك أفصح من الذكر، والامتناع من أن يبرز اللفظ من الضمير، أحسن للتصوير؟[2]".

وفي تعليق معاصر مطمئن من حيث المعالجة الجرجانية، يقول **عبد العزيز حمودة**: "إن تلك السطور الطويلة لم يكتبها **عبد القاهر** في تحليل بيت من الشعر، بل في تحليل الوظيفة الجمالية الدلالية التي أداها حذف كلمة واحدة في البيت هي المفعول به في (حززن إلى العظم) ألا يخلق السكوت عن (اللحم) هنا (فجوة) يقوم المتلقي بملئها، بالمعنى الحداثي وما بعد الحداثي أيضا؟ أليس هذا على وجه التحديد ما يعنيه **عبد القاهر** حينما يحوّل الحذف إلى مبدأ نقدي سبق إليه نقاد النصف الثاني من القرن العشرين[3]".

---

[1]- المصدر نفسه ، ص: 171.

[2]- المصدر نفسه، ص: 173.

[3]- عبد العزيز حمودة، المرايا المقعرة نحو نظرية نقدية عربية، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، سنة:2001، ص: 376.

ويسوق **عبد القاهر** في مجال التدليل على صحة توجهه في القول بمسألة النظم، ملاحظات شديدة التركيز، ذات أبعاد أسلوبية تشي بقدرة اللغة في توقيع الجمال متى قدر لمستعملها أن يكون ذا كفاءة إبداعية، يقول: "وهل يقع في وهم وإن جهد، أن تتفاضل الكلمتان المفردتان، من غير أن ينظر إلى مكان تقعان فيه من التأليف والنظم... وهل تجد أحدا يقول: هذه اللفظة فصيحة، إلا وهو يعتبر مكانها من النظم وحسن ملاءمة معناها لمعاني جاراتها، وفضل مؤانستها لأخواتها؟ وهل قالوا: لفظة متمكنة، ومقبولة، وفي خلافه: قلقة، ونابية، ومستكرهة، إلا وغرضهم أن يعبروا بالتمكن عن حسن الاتفاق بين هذه وتلك من جهة معناها وبالقلق والنُّبُوِّ عن سوء التلاؤم، وأنّ الأولى لم تَلِقْ بالثانية في معناها، وأن السابقة لم تصلح أن تكون لفقاً* للتالية في مؤداها[1]".

يتبع **عبد القاهر** ملاحظاته هذه وهي في مجموعها خلاصة مركزة لكثير مما دعا إليه من عناصر بنائية تجتمع كلها تحت مسمى النظم، بهذه القراءة الجمالية ليس لقضايا النحو ومعانيه فحسب، بل لمجموع ما تمثله علوم اللغة للآيات الكريمات مبينا دلالة أن يكون مرد الإعجاز لطبيعة البيان القرآني. يقول: "وهل تشك في قوله تعالى ﴿وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَ يَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ هود/44. فتجلى لك منها الإعجاز، وبهرك الذي ترى وتسمع أنك لم تجد ما وجدت من المزية الظاهرة، والفضيلة القاهرة، إلا لمن يرجع إلى ارتباط هذه الكلم بعضها ببعض، وأن لم يعرض لها الحسن والشرف إلا من حيث لاقت الأولى الثانية، والثالثة بالرابعة، وهكذا إلى أن يستقريها إلى آخرها وأنّ الفضل تَنَاتَج ما بينها، وحصل من مجموعها، وإن شككت، فتأمل: هل لفظة منها بحيث لو أُخِذَتْ من بين أخواتها وأفردت لأدت من الفصاحة ما تؤدّيه وهي في مكانها من الآية؟ قل: "ابلعي، واعتبرها وحدها من غير أن تنظر إلى ما قبلها وما بعدها، وكذلك فاعتبر سائر ما يليها وكيف بالشك في ذلك، ومعلوم أن مبدأ العظمة في أن نوديت الأرض، ثم أمرت، ثم في أن كان

*يطلق اسم اللفقين، على الصاحبين المتلازمين.

[1]- الجرجاني أبو بكر عبد القاهر، دلائل الإعجاز في علم المعاني، ص: 45.

النداء بـ (يا) دون (أي)، نحو: (يا أيتها الأرض) ثم إضافة (الماء) إلى (الكاف)، دون أن يقال (ابلعي ماءَك)، ثم أن أُتبع نداء الأرض وأمرها بما هو من شأنها، نداء السماء وأمرها كذلك، بما يخصها، ثم أن قيل: (وغيض الماء)، فجاء الفعل على صيغة (فُعِلَ) الدالة على أنه لم يغضْ إلا بأمر آمر وقدرة قادر، ثم تأكيد ذلك وتقريره بقوله تعالى (وقُضي الأمرُ)، ثم ما هو فائدة هذه الأمور وهو (استوت على الجودي)، ثم إضمار (السفينة) قبل الذكر، كما هو شرط الفخامة والدلالة على عظم الشأن، ثم مقابلة (قيل) في الخاتمة بـ (قيل) في الفاتحة؟ أفترى لشيء من هذه الخصائص التي تملؤك بالإعجاز روعة، وتحضرك عند تصورها هيبة تحيط بالنفس من أقطارها تعلقا باللفظ من حيث هو صوت مسموع وحروف تتوالى في النطق؟ أم كل ذلك لما بين معاني الألفاظ من الاتساق العجيب[1]؟".

إن أي تعليق على هذا التحليل من شأنه أن يظهر مقصودا لذاته فقط، فهو لا يستطيع أن يضيف جديدا، فالرجل قد أقام من نفسه لنفسه محاوراً عنيداً لا يقتنع إلا بالمزاوجة بين الملاحظة النظرية وما يقوم عليها دليلا شاهدا ينفي عن نفسه الشبهة، فما ظنك بالاتهام، وإنها لقراءة لغوية صميمة تستوعب جميع ما قال به **عبد القاهر** من مفردات نظريته في النظم، ولمن طلب المزيد، طلبه في دلائل الإعجاز، وإن قراءة مثل التي رأينا لتربط أشد الارتباط الملمح البلاغي بالتحليل الأسلوبي إن في مستوى ملاحقة الآلية والإجراء، أو في مستوى تتبع عناصر الجمالية المرادة في صناعة قيم التجاوب والتأثير، وتلك غاية القرآن الكريم في دعوة الناس إلى هدى ربّ الناس، فيكون فلاحهم في الدنيا والآخرة.

وقد ارتأيت الجمع بين مقدّمات النظرية، ثم محاولة شفعها بهذا النموذج العملي رغبة في صناعة منصة انطلاق لمحاورات عديدة تخص القراءة الجمالية الكاشفة لمناط الإعجاز في أسلوب القرآن الكريم عند الجرجاني خاصة، وعند القائلين بنظرية النظم عامة. ولمن طلب المزيد نظر في دلائل الإعجاز أو في عموم

[1]- المصدر نفسه، ص: 45.

ما كتب عن هذه النظرية، وقد سبق التنويه بما لدى **الزمخشري** و**الرازي** قديما وما وجدناه عند **محمد الطاهر ابن عاشور** حديثا في تفسيره التحرير والتنوير.

المحاضرة الخامسة: ابن الأثير وحازم القرطاجني والمقاربة اللغوية

ابن الأثير ومسألة النظم:

هو أبو الفتح نصر الله ضياء الدين المعروف بابن الأثير[1]، ولد عام 558هـ، بجزيرة ابن عمر وهي ناحية الموصل بالعراق، توفي 687هـ، ترك مؤلفات كثيرة أشهرها "المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، والجامع الكبير". لقد أفاد ابن الأثير كثيرا من تأخره في الزمن، فقد حصل جراء ذلك تراكم كبير في الخبرة المعرفية ذات الصلة بدراسة قضايا اللغة في كثير من المستويات، وربما تجلى ذلك في كثير مما يشير إليه إزاء قضايا البلاغة بصورة خاصة. "فهو قد قرأ كثيرا من الشعر واطلع على كثير مما ألف في النقد والبلاغة، ثم انهمك من خلال ذلك كله في شق طريقه"[2].

وإذا شئنا من ذلك جميعه توقفنا على الذي له صلة بطبيعة مقاربتنا هذه، حيث نظرته إلى طبيعة المعنى في علاقته باللفظ، فهي بعد أن رأينا الذي رأينا عدّت جوهر تفتقت عنه دراسات شتى فيما يخص علوم اللغة عامة، وعلوم البلاغة خاصة، لقد عدّ ابن الأثير لدى النقاد من أنصار المعنى.

يذكر في المثل "اعلم أن العرب كما كانت تعتني بالألفاظ فتصلحها وتهذيبها فإن المعاني أقوى عندها، وأكرم عليها وأشرف قدرا في نفوسها، فأول ذلك عنايتها بألفاظها، لأنها لما كانت عنوان معانيها وطريقة إظهار أغراضها أصلحوها وزينوها، وبالغوا في تحسينها، ليكون ذلك أوقع لها في النفس، وأذهب بها في الدلالة على القصد، ألا ترى أن الكلام إذا كان مسجوعا لذّ حفظه، وإذا لم يكن مسجوعا لم يأنس به أنسه في حالة السجع"[3]، فهو يقدم الرأي كما ترى، ثم يشفعه بهذه الموازنة الدالة بين أن يكون الكلام مسجوعا، وحين يخلو من السجع، ثم يصرح في يقين تام بأنك "فإذا رأيت العرب قد أصلحوا ألفاظهم

---

[1]- ابن الأثير أبو الفتح نصر الله ضياء الدين، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية، بيروت، لبنان سنة: 1420هـ ص: 11/1.

[2]- إحسان عباس، تاريخ النقد عند العرب، ص: 592.

[3]- ابن الأثير أبو الفتح نصر الله ضياء الدين، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، ص: 340.

وحسّنوها، ورقّوا حواشيها، وصقلوا أطرافها، فلا تظن أن العناية إذا ذاك إنما هي بالألفاظ فقط، بل هي خدمة منهم للمعاني"[1] ثم يعطينا معادلا موضوعيا لتلك الصورة فيقول: "ونظير ذلك إبراز الصورة الحسناء في الحلل الموشيّة والأثواب المحبرة"[2].

واضح إذن انتصار **ابن الأثير** للمضامين الدلالية التي تحملها الألفاظ، وإنما يعتنى بهذه الأخيرة لأجل إبراز المعاني حتى تكون أكثر مقبولية لدى المتلقي، لكن ألا يشعرنا بمدى أهمية اللفظ أيضا حينما يجعل وصول المعنى إلى حيث يجب أن يصل متوقفا على اللفظ، وليس أمر حديثه عن السجع ببعيد، وإن شئت فانظر أهمية اللفظ عنده حين يأمرك: "عليك بتنقيح الألفاظ وتحسينها، فإن الخطب الرائقة والأشعار البارعة، لم تعمل لإفهام المعاني فقط، لأنه لو قصد بها الإفهام فقط لكان الرديء من الألفاظ يقوم مقام الجيد في الإفهام، وإنما عملت الخطب والأشعار لأجل الإتيان ببداعة اللفظ"[3]، ثم يستدرك لمزيد من توضيح ضرورة التفاعل بين اللفظ والمعنى بما يجعلها على ذات القدر من الأهمية، فيقول: "ولسنا نعني بذلك أن يجعل المؤلف همته مقصورة على تجويد الألفاظ، ويهمل المعاني المنوطة تحتها، وإنما المعنى به أن تكون المعاني المقصودة ذات ألفاظ حسنة رائقة"[4]، فهي كما نشهد نظرة متوازنة وإن رجحت المعاني أحيانا فتأثرا بطبيعة ابن الأثير ذاته.

إن أمر هذه النظرة لمسألة اللفظ والمعنى في تراثنا كله لم تكن لصالح جهة بالمطلق عند أي من القائلين بها و لك أن تعود حتى إلى الجاحظ المتهم في نظر الكثير من الدارسين باللفظ لتجد أنها أولويات متقاربة إلا من بعض الشطط أغلبه يرجع إلى مبالغات في مستوى التعبير ليس إلا.

وبالنظر فيما عند **ابن الأثير** سيما عند محاولته تشخيص طبيعة اللحمة الجامعة للفظ والمعنى، نجده يعود بنا إلى الإمام **عبد القاهر**، وقد بدا تأثره به كبيرا، يقول: "ونظير ذلك إبراز صورة الحسناء في الحلل

---

[1]- المصدر نفسه، ص: 340.
[2]- المصدر نفسه، ص: 340.
[3]- ابن الأثير أبو الفتح نصر الله ضياء الدين، الجامع الكبير في صناعة المنظوم من الكلام والمنثور، تحقيق: مصطفى جواد، مطبعة المجمع العلمي، سنة: 1375هـ، ص: 21.
[4]- المصدر نفسه، ص: 21.

المواشية والأثواب المحبرة"[1]. وكثيرة هي الصور المشابهة لدى **عبد القاهر**، والتي رأينا تفسيرها عند بعضهم بمسعى **الجرجاني** ليس بين اللفظ والمعنى فحسب، بل إلى ذلك يضيف كثيرا من الفنون.

وربما قربنا هذا التأثر خطوة نحو دلالة القول بالنظم الجرجانية، ذلك ما نستطيع استنتاجه من رؤيته دلالة القول بطبيعة الوظيفة النحوية، حيث النحو شرط القدرة على التأليف الجميل الضامن لإمكانيات الشعرية الفنية، يقول **ابن الأثير** رابطا المعرفة النحوية بطبيعيات البنيات اللغوية: "لأن المؤلف إذا كان عارفا بالمعاني، مختارا لها، قادرا على الألفاظ، مجيدا فيها، ولم يكن عارفا بعلم النحو"[2]، يرى ساعتها **ابن الأثير** أن هذا المؤلف الفاقد للمعرفة بالنحو مع علمه بالألفاظ والمعاني، إلا أنه: "يفسد ما يصوغه من الكلام، ويختل عليه ما يقصده من المعاني"[3]، وتزداد حاجة المؤلف إلى النحو إذا تعلق الأمر بتمثل مفردات علم البيان والمقصود هنا دون شك البيان مناط مضاعفة القيم الجمالية، فيقول مفصلا: "أما علم النحو فإنه في علم البيان من المنظوم والمنثور بمنزلة أبجد في تعليم الخط وهو أول ما ينبغي إتقان معرفته"[4].

وعلم البيان عند **ابن الأثير** هو: "الفصاحة والبلاغة"[5]، وصاحب علم البيان عنده "يسأل عن أحوالهما اللفظية والمعنوية (أي الفصاحة والبلاغة)"[6] ، أما صاحب النحو فيقول عنه: "أن النحوي ينظر في دلالة الألفاظ على المعاني من جهة الوضع اللغوي وتلك دلالة عامة"[7]، في مقابل ذلك نجد "صاحب علم البيان ينظر في فضيلة تلك الدلالة وهي دلالة خاصة"[8].

هل صار في مقدورنا بعد هذه الوقفة مع **ابن الأثير** أن نسجل قربه الشديد مما ذهب إليه **الجرجاني** في مباحث النظم، ذلك نخلص إليه من تعويل ابن الأثير على ضمان صحة اللغة وصيانها على النحو في

---

[1]- ابن الأثير أبو الفتح نصر الله ضياء الدين، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر ص: 340/1.
[2]- ابن الأثير أبو الفتح نصر الله ضياء الدين، الجامع الكبير في صناعة المنظوم من الكلام والمنثور، ص: 8.
[3]-المصدر نفسه، ص: 8.
[4]-ابن الأثير أبو الفتح نصر الله ضياء الدين، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر ص: 29.
[5]- المصدر نفسه، ص: 26.
[6]- المصدر نفسه، ص: 26.
[7]- المصدر نفسه، ص: 26.
[8]- المصدر نفسه، ص: 26.

مقابل البيان (فصاحة وبلاغة) من أجل ترقية فضيلة الكلام مزاياه، وربما هي التوليفة التي ذهب إليها **عبد القاهر** من جمعه بين المسألتين بقوله بنظرية النظم، واعتبارها ضرورة توخي معاني النحو، وربما لمثل هذه المزاوجة والإدماج بين الحاجة إلى النحو والحاجة إلى البيان خدمة للمنزع الأدبي، ذكر أحد أكبر المشتغلين على قضايا البلاغة تنظيرا وتطبيقا وهو **أحمد مطلوب** واصفا عمل **ابن الأثير**: "كانت دراسته من أوسع الدراسات وأعمقها ولم يأت بعده من أضاف إليها، واتجهت الكتب إلى التلخيص والقضاء على النزعة الأدبية التي اتسمت بها دراسة ابن الأثير"[1].

حازم القرطاجني ومسألة النظم:

هو حازم بن محمد بن حسن بن محمد بن خلف بن حازم القرطاجني، كان "مولده في كوة قرطاجنة في عام 608هـ، يرجح أنه توفي سنه: 684هـ"[2]، ترك مؤلفات أهمها: منهاج البلغاء وسراج الأدباء وهو كتاب في البلاغة جامع لأنواعها وضروب الفصاحة.

يذكر أحد الدارسين أن **حازم**: "قرأ **عبد القاهر**، واستوعب مفهومه للنظم، وأقام هذا المفهوم في مقابل الأسلوب، إلا أنّه ربط النظم بالصياغة اللفظية وبالعلاقات النحوية على نحو ما قال به **عبد القاهر**"[3] وهناك من إضافة إلى ذلك رأى بأن **حازم** يكون قد أفاد من **عبد القاهر** خاصة في نظريته في النظم، غير أنه له إضافته الخاصة، التي ربما تجاوز بها **عبد القاهر**، سيما عند حديثه عن مقومات بناء النص الشعري، "أفاد **حازم** من نظريته (النظم) الجرجانية، ولكنه استطاع تجاوزها حين تحدث عن النظم بمعناه العام الذي يُعنى بالتركيب النحوي للجملة، وجعل إلى جانبه (الأسلوب) الذي يتناول نظم المعنى وتأليفه، وبذلك

[1]- أحمد مطلوب، أساليب بلاغية، وكالة المطبوعات، ط/1، الكويت، سنة:1980ص: 41.
[2]- عمر إدريس عبد المطلب، حازم القرطاجني حياته ومنهجه البلاغي، دار الجنادرية للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، سنة: 2009، ص: 14.
[3]- عبد الله خضر حمد، التفكيك في الفكر العربي القديم جهود عبد القاهر الجرجاني أنموذجا، مكتبة القلم.

انتقل **حازم** من مستوى الجملة إلى مستوى النص، ويكون بذلك قد تجاوز نظرية النظم بإضافة نظرية الأسلوب"[1].

ولعله الفهم ذاته الذي نجده عند الباحث **محمد الخطابي** ففي فصل عده بهذا الخصوص، وصف كيفية تماسك النص عند **حازم القرطاجني**، يقول: "أما البحث في الوسائل والعلاقات والكيفية (كيفية التماسك) فلم تظهر إلا في إنتاج **حازم** النقدي"[2]، ويعزو ذلك إلى مدى تأثر **حازم** "بأعمال الفلاسفة أمثال **الكندي** و**الفارابي** و**ابن سينا**"[3]، كما سعى للإفادة أيضا من كتاب أرسطو. وبالنظر فيما قال به حازم في منهاجه نجده قد سمى فصلا منه بالعنوان التالي: "معلم دال على طرق علم بكيفية الاستمرار في الأساليب والاطراد عليها وما يحسن اعتماده فيها"[4]. وربما في العنوان ما يشي بطبيعة مقاربته لمفهومي النظم والأسلوب يقول: "لما كانت الأغراض الشعرية يوقع في واحد منها الجملة الكبيرة من المعاني والمقاصد، وكانت لتلك المعاني جهات فيها توجد ومسائل منها تقتنى كجهة وصف المحبوب وجهة وصف الخيال وجهة وصف الطلول وجهة وصف يوم النوى وما جرى مجرى ذلك في غرض النسيب، وكانت تحصل للنفس بالاستمرار على تلك الجهات والنقلة من بعضها إلى بعض وبكيفية الاطّراد في المعاني صورة وهيأة تسمى الأسلوب"[5].

فإذا أفهمنا **حازم** ما يريده من مصطلح الأسلوب باعتبار ذلك محصلة التزام بالغرض المراد من النص الشعري، وقد أطلق على ذلك حين استمراره لفظ الاطّراد، فإنه بذلك "وضع تصوره للأسلوب على أساس الغرض الشعري، وما يجب أن يكون من سمات كل أسلوب بحسب الغرض"[6].

---

[1]- بن عيسى بطاهر، نظرية الأسلوب عند حازم القرطاجني، قسم اللغة العربية جامعة الشارقة، الإمارات العربية المتحدة، ص: 57.
[2]- محمد الخطابي، لسانيات النص مدخل إلى انسجام الخطاب، المركز الثقافي العربي ط/1، بيروت، لبنان، سنة: 1991، ص: 49.
[3]- المرجع نفسه، ص: 49.
[4]-القرطاجني أبو الحسن حازم، منهاج البلغاء وسراج الأدباء، تقديم وتحقيق: محمد الحبيب ابن خوجة الدار العربية للكتاب، تونس، سنة: 2008، ص: 327.
[5]- المصدر نفسه، ص:327 .
[6]- عمر إدريس عبد المطلب، حازم القرطاجني حياته ومنهجه البلاغي، ص: 239.

لقد أفاد من ذلك إلى اعتبار الإضافة النوعية لحازم في نقله المقاربة النقدية إلى مستوى النص من هذا الاعتبار، اعتبار الغرض والمقصد العام من النص الحامل لتلك المعاني، ينقل عنه **عمر إدريس**: "والشعر ينقسم أولا إلى طريق جد وطريق هزل، وله قسمة أخرى من جهة ما تتنوع إليه المقاصد والأغراض"[1]، ثم يبين خصائص كل نوع وميزاته، بما يؤكد اتجاهه إلى مقولات عامة عابرة شاملة، وهي التي اعتبرت إضافته أما حديثه عن النظم في مقابل مقالته عن الأسلوب فهو يتأتى من خلال قوله: "وجب أن تكون نسبة الأسلوب إلى المعاني نسبة النظم إلى الألفاظ، لأن الأسلوب يحصل على كيفية الاستمرار في أوصاف جهة من جهات غرض القول وكيفية الاطراد عن أوصاف جهة، فكان بمنزلة النظم في الألفاظ الذي هو صورة كيفية الاستمرار في الألفاظ والعبارات والهيئة الحاصلة عن كيفية النقلة من بعضها إلى بعض، وما يتعمد فيها من ضروب الوضع وإنحاء الترتيب"[2].

وخلاصته من ذلك ما يوجزه فيما يلي: "فالأسلوب هيئة تحصل من التأليفات المعنوية، والنظم هيئة تحصل عن التأليفات اللفظية"[3]، ثم يضيف ما يبين حقيقة كل من الأسلوب والنظم من حيث الأبعاد الإجرائية يقول: "ولما كان الأسلوب في المعاني بإزاء النظم في الألفاظ وجب أن يلاحظ فيه حسن الاطراد والتناسب والتلطف في الانتقال عن جهة إلى جهة والصيرورة عن مقصد إلى مقصد، ما يلاحظ في النظم من حسن اطراد من بعض العبارات إلى بعض ومراعاة المناسبة ولطف النقلة"[4].

وفي المسألة كما يمكننا أن نلاحظ ضرورة أن يكون التجاوب حاصلا بين البينتين المعنوية واللفظية، بل يكاد يكون ثمة تطابق وفي الذي يقوله في هذا الشاهد ما يدلل على ذلك، وفيه أيضا ما يلاحظ منه مدى اقترابه مما يقول به **الجرجاني** في مسألة النظم، يقول متحدثا عن المعاني: "إنما هي صور ذهنية محصولها صور تقع في الكلام بتنوع طرق التأليف في المعاني والألفاظ الدالة عليها، والتقاذف بها إلى

---

[1]- المرجع نفسه، ص:239.
[2]- القرطاجني أبو الحسن حازم، منهاج البلغاء وسراج الأدباء ، ص: 327.
[3]- المصدر نفسه، ص: 327.
[4]-المصدر نفسه، ص: 328.

جهات من الترتيب والإسناد"[1]، فالتأليف إذا إنما حصل بسبب المعاني وهي في حقيقتها ليست إلا مشاعرا أو أحاسيسا أو أفكارا، ويكون بذلك نظم الألفاظ تبعا لطبيعة المعنى المراد التعبير عنه، وتكون القدرة على التأليف تحصيلا لاستجابة البنيات اللغوية للمعاني والأغراض المقصودة، وربما لمسنا مثل هذا التخريج من قوله: "ويقتدر على هذا بمعرفة كيفيات تصاريف العبارات وهيئات ترتيبها وترتيب ما دلت عليه والبصيرة بضروب تركيباتها وشتى مآخذها... وأصناف هيئاتها وهيئات ما دلت عليه، وللحيل التي تنتظم بها تلك العبارات على الهيئات المختارة... وإبدال لفظة مكان لفظة أو تقديم أو تأخير..."[2].

إن الذي أورده حازم هاهنا من مصطلحات تظهره متأثرا في قراءته هذه بالجرجاني، وإذا شئنا أخذنا بعضها من مثل ما يلي: (كيفيات، تصاريف، تركيبات، هيئات، مآخذ، تنتظم، إبدال لفظة، المختارة) إنها منظومة متكاملة تشكل حقلا دلاليا يؤشر بصورة بارزة إلى مقررات نظريات النظم وبذلك يكون **حازم** قد: "قرر ما سبق أن قال به **ابن رشيق** و**عبد القاهر** وغيرهما من أعلام النقد العربي.."[3]، فهو يرى "أن الأدب لن يؤثر في المتلقي إلا إذا كان جديدا مبتكرا"[4] والابتكار إنما يدور في مستويين مستوى الدلالة ومستوى البناء وقد تقرر أنه في مستوى البنية،يوكل أمره إلى العناصر اللغوية التي قال بها النظم والتي منها: الحذف، والوصل، والفصل، والتقديم، والتأخير، والقصر، والتنويع في بنيات صيغ الخبر.

ثم يختم بملاحظة نرى أهميتها كامنة في قرب ما يذهب إليه، إلى ما رأينا عند **عبد القاهر** لما جمع بين المضامين المعنوية والهيئات المعبرة عنها فيها بمصطلح النظم، وإبعاد لما يوهم بالازدواجية عند **حازم** بين اللفظ والمعنى يسجل ملاحظة ختامية يقول فيها: "ولما كان التصرف في ترتيب العبارات بإيزاء التصرف في ترتيب المعاني جعلت هذه الإضاءة الموضحة عن الوجوه التي يجب اعتمادها في جميع ذلك"[5].

---

[1]ـالمصدر نفسه، ص:15.
[2]ـ المصدر نفسه، ص: 16.
[3]ـ شريف علاونة، النقد الأدبي في الأندلس عصر المرابطين والموحدين، وزارة الثقافة ط/1، عمان، الأردن، سنة: 2005، ص: 224.
[4]ـ المرجع نفسه، ص: 225.
[5]ـ القرطاجني أبو الحسن حازم، منهاج البلغاء وسراج الأدباء، ص: 16.

إن الرجلين كليهما قدّما للبلاغة العربية، وأنه لا يعيب الثاني انطلاقه من القاعدة التي بناها الأول وكما أنه لا تضير الأول الإضافة التي قال بها الثاني، سيما ما تعلق عنده بطبيعة نظرته للأسلوب بالمفهوم المرتبط بالمقاصد والأعراض العامة، الأمر الذي من شأنه أن يعد تجديدا في تلك المرحلة السابقة.

المحاضرة السادسة: المتأخرون ونظرية النظم

بعد الحديث عن النظم عند المتقدمين من علماء التراث، ثم كيف استطاع **عبد القاهر** قراءة أبعاد هذا المصطلح عند من تقدمه، ليحيل ذلك إلى آليات بحث لغوية جمالية، سعى بواسطتها إلى الكشف عن مناط الإعجاز في لغة القرآن الكريم. هذا الأمر الذي أكسب ما ذهب إليه الجرجاني أهمية خاصة وجعلت التفاعل معها حاضرا مع الأيام وإلى يوم الناس هذا.

إن تاريخ تطور مسألة النظم يشهد عليه حضور هذا المصطلح في الدراسات النحوية والبلاغية وصولا إلى النقد الحديث والمعاصر. وإنه بالنظر فيما جاءت به كتابات المحدثين في هذا المجال أمكن الوقوف على بعض النماذج، والتي منها[1]:

1- محمد عبد المنعم خفاجي:

كتب **عبد المنعم** مؤلفا تحت عنوان: "عبد القاهر والبلاغة العربية"، الذي وصفه بأنه: "دراسة جديدة لعبد القاهر وآرائه ومذهبه وأثره في البلاغة والبيان"، ذكر أن **عبد القاهر** شخصية فذة وأنه واسع الثقافة... واعتبره أول من أفاض في شرح نظرية النظم وتحليلها، وقد سبقه أبو عبيدة والجاحظ وابن قتيبة والنحويون إلى دراسة أصول النظم، كما يرى أن لعبد القاهر منهجا خاصا في بحوث البلاغة ودراستها، وهو المنهج الأدبي المحض، كما يرى الأستاذ **عبد المنعم**، كخلاصة أننا بحاجة إلى السير على منهج **عبد القاهر** البلاغي.

[1]- للتوسيع ينظر الحسيني ضياء الدين فاضل، عروض نظرية النظم عند الإمام عبد القاهر الجرجاني ومباحثها، أروقة عمان، الأردن، ط/1، سنة: 2015، ص: 127 وما بعدها.6

2- **بدوي طبانة:**

يقول في كتابه: "البيان العربي دراسة تاريخية فنية في أصول البلاغة العربية" ممهدا لحديثه عن **عبد القاهر**: "يمكن اعتبار عصر عبد القاهر مرحلة النضج والرشد الفكري في تلك الحياة، فالذوق العربي جارى سنة الطبيعة فترقى... إلى مراتب التذوق المنظم القائم على تعرف علل التأثر وأسبابه"[1].

ويقول أيضا: "إن عبارات (البلاغة، والفصاحة، والبيان) وما شاكلها من المصطلحات تكاد تتقارب في نظر عبد القاهر، لأنها جميعا –كما يقول- يعبر بها عن فضل بعض القائلين على بعض"[2]، ثم يذكر أنه: "تنهض فلسفة عبد القاهر البيانية على أساس فكرة النظم، وليس للنظم معنى عنده سوى تعليق الكلم بعضها ببعض، وجعل بعضها بسبب من بعض"[3]، ويرجع بقضية النظم هذه إلى "أن هذه الفكرة لم يكن عبد القاهر مخترعا لها، وإن كان هو الذي بسط فيها القول... وإنما كانت وليدة ذلك الصداع الذي أثاره امتزاج الثقافات"[4].

ويسجل أن **عبد القاهر** يرى أنه: "لا قيمة للكلمة قبل دخولها في التأليف... والألفاظ لا تتفاضل من حيث هي ألفاظ مجردة، ولا من حيث هي كلم مفردة، ولكن الألفاظ تثبت لها الفضيلة وخلافها في ملاءمة معنى اللفظة لمعنى التي تليها"[5]. ويرى أن الذي يقف وراء البنيات اللغوية هو: "العقل هو الذي يصطنع هذه الفكرة وينظمها وينسقها..."[6].

وبعد طول دراسة لمسألة النظم وانعكاساتها الإيجابية في مستوى التحليل والكشف ينتهي إلى نتيجة مفادها "أن البيان العربي لم يظفر بمثل هذا الأسلوب التحليلي الذي فيه مثل هذا البحث العميق والاستقصاء الدقيق في أية مرحلة من مراحل حياته... حقا إن **عبد القاهر** لم يهمل القاعدة أساسا

---

[1]- بدوي طبانة، البيان العربي دراسة تاريخية فنية في أصول البلاغة العربية، مطبعة الرسالة، ط/2، القاهرة، مصر، سنة: 1958، ص: 116

[2]- المرجع نفسه، ص: 117.

[3]- المرجع نفسه، ص: 120.

[4]- المرجع نفسه، ص: 120.

[5]- المرجع نفسه، ص: 125.

[6]- المرجع نفسه، ص: 128.

للدراسة، ولكن تلك القاعدة تنزوي وتتضاءل أمام هذا البحث العملي المتسع الأطراف... ولعل من الصواب أن يقال إن **عبد القاهر** واضع أسس المنهج التحليلي في دراسة البيان أو المعاني العقلية ومسايرة العبارات لها ودلالتها عليها"[1].

3- درويش الجندي:

ألف كتابه (نظرية عبد القاهر في النظم) أبان فيه عن هدف **عبد القاهر** من نظرية في النظم فقال: "من أجل ذلك فقد استهدف عبد القاهر بنظريته في النظم:بيان أن جوهر الكلام هو ذلك الكلام النفسي، وأما الكلام اللفظي فهو ظل لهذا الكلام النفسي، وأن القرآن هو المعجزة التي أيد بها الله محمدا عليه السلام، ولما كان الغالب على زمان محمد عليه السلام في قومه العرب البلاغة والبيان كانت معجزته هي القرآن ومن شرط المعجزة أن تكون أمرا خارقا للعادة..."[2].ثم يصل إلى نتيجة هي أن ذلك هو الذي ترك **عبد القاهر** وقد "قصر حقيقة الكلام وفصاحته وبلاغته على النظم بالمفهوم الذي حدده"[3]، و**درويش الجندي** يعود بنظرية النظم إلى ذات الأصول التي أعادها إليها، إذ "إن معاني النحو إذن هي التي يتعلق بها الفكر، وهي تمثل العلاقات بين معاني الكلم في النفس، وإليها يستند ترتيب هذه المعاني في النفس"[4]، وفي الخاتمة يقول **الجندي**: "لقد كانت نظرية النظم لدى **عبد القاهر** دعوة صارخة إلى دراسته النحو على منهاج جديد يقوم على الحس والذوق وحسن التخير، بدلا عن ذلك المنهاج التقليدي الذي يوجه العناية إلى الإعراب"[5].

---

[1]- المرجع نفسه، ص: 133.
[2]- درويش الجندي، نظرية عبد القاهر في النظم، ص: 47.
[3]- المرجع نفسه، ص: 48.
[4]- المرجع نفسه، ص: 122.
[5]- المرجع نفسه، ص: 122.

4- **وليد محمد مراد:**

ألف كتابا عنوانه: "نظرية النظم وقيمتها العلمية في الدراسات اللغوية" ذكر فيه أن **عبد القاهر** "لا يقصد من النظم إلا تأليف الكلام وفقا لأبواب النحو المختلفة..."[1] ، ورأى أن: "عبد القاهر بإحساسه المرهف وذوقه النامي، يقارن صياغة الكلام بصياغة المعاني النفسية، ونسج الكلام بنسج الحرير، وترتيب النظم بالتصوير المبدع..."[2] ، ثم يستشهد على مدى فاعلية النظم في رصد مواقع الجمال وأسراره في التعبير اللغوي بما ذهب إليه سيد قطب حيث قال: "إن فضل عبد القاهر في تقريره هذه القضية عظيم، ولو خطا خطوة واحدة في التعبير الحاسم عنها لبلغ الذروة"[3].

ويخلص **وليد مراد** حديثه عن النظم الجرجاني إلى نتيجة مفادها: "لم يفصل عبد القاهر بين اللغة والفكر إلا فصلا مظهريا، لإيمانه بمتانة هذه الرابطة وبثباتها، يرى المرء ذلك بعد إعداد جملة من القول في نظم كي تتكشف له أسرارها الدقيقة"[4].

5- **أحمد مطلوب:**

ألف في نظرية النظم كتابا عنوانه: "عبد القاهر الجرجاني بلاغته ونقده" قال في مقدمته: "عبد القاهر ليس ممن نسيهم الباحثون، فهو علم من أعلام الفكر الإسلامي أثرى الدراسات العربية بما ألف في النحو والصرف والبلاغة والنقد"[5]، و أنه: "أرسى نظرية النظم التي أدار عليها مباحث اللفظ والمعنى والصور البيانية وإعجاز القرآن"[6]، ثم بعد استفاضته في الحديث عن أصول هذه النظرية ينتهي إلى إقرار البعد الجمالي لهذه النظرية كان الدارسون قد تغافلوا عنه فجاء منهجه مختلفا: "وعن النحاة في بحثها، كما يختلف في فهمه وتفسيره لهذه الأسباب اختلافا كبيرا، فقد أعطى هذه الموضوعات حياة فقدتها على

---

[1]- المرجع نفسه، ص: 122.وليد محمد مراد، نظرية النظم وقيمتها العلمية في الدراسات اللغوية عند عبد القاهر، ص: 56.
[2]- المرجع نفسه، ص: 126.
[3]-المرجع نفسه، ص: 138.
[4]- المرجع نفسه، ص: 156.
[5]- أحمد مطلوب، عبد القاهر الجرجاني بلاغته ونقده، ص: 5.
[6]- المرجع نفسه، ص: 5.

الذين قللوا من قيمة النحو وزهدوا فيه أو نظروا إليه نظرة ضيقة تنحصر في الإعراب والبناء، وكان النحو عنده عمدة البياني الذي يحلل النصوص ويوازن بينها ويفضل بعضها على بعض..."[1].

ذكر هذا الباحث هذه الملاحظات بعد طول وقوف على التراكيب والصور التي قرأها **الجرجاني** بخلاف الزاوية التي نظر إليها منها الآخرون، وقد أبان في بحث عطاءات نظرية النظم في المناحي الأسلوبية ويختم وقفته التطبيقية عن ملاحظة هي: "قد أثمرت دراسة عبد القاهر للنحو وخلقت نظرية النظم التي تعد أهم نظرية في النقد العربي القديم"[2].

وربما ختمنا أهمية نظرية النظم وكيفية مقاربتها لقضايا اللغة عموما وقضية النحو خاصة، مع مراعاة أبعادها في مستوى الاعتماد على الذوق الفني بدعوة إبراهيم مصطفى إذ يصرح: "لقد آن لمذهب عبد القاهر أن يحيا وأن يكون سبيل البحث اللغوي... إن الحس اللغوي أخذ ينتعش ويتذوق الأساليب، ويزنها بقدرتها على رسم المعاني، والتأثير بها، من بعد ما عاف الصناعات اللفظية، وسئم زخارفها"[3].

تلك بعض النماذج عن حديث المحدثين عن نظرية النظم، ولو كان في الأمر سعة لكانت وقفتنا تطول بقدر قيمة **عبد القاهر الجرجاني** عامة، وقيمة وفاعلية نظرية النظم عنده بصورة أخص، ولمن طلب المزيد فالحديث عنها من الكثافة بالقدر الذي لا يخفى معه على كل دارس مهتم.

---

[1]- المرجع نفسه، ص: 60.

[2]- المرجع نفسه، ص: 64.

[3]- إبراهيم مصطفى، إحياء النحو، مؤسسة هنداوي، القاهرة، مصر، سنة: 2014 ص: 27.

المحاضرة السابعة: من النظم إلى الأسلوبية

بالنظر فيما سبق من ربط للبلاغة بالأسلوبية، انطلاقا من أن البحث البلاغي يستند على قاعدة لغوية نحوية شأنه شأن الأسلوب، نجد أن هذه الخلاصة تحيلنا إلى ما ذكرناه بشأن نظرية النظم، إذ وجدنا التصريح عن ذلك واضحا فيما ذهب إليه **عبد القاهر**، حيث يقول: "ثبت أن ليس هو شيئا غير توخي معاني هذا العلم وأحكامه فيما بين الكلم والله الموفق للصواب"[1]، وعنده أيضا: "وليس النظم إلا أن تضع كلامك الوضع الذي يقتضيه علم النحو وتعمل على قوانينه وأصوله"[2]، "فلست بواجد شيئا يرجع صوابه إن كان صوابا وخطؤه إن كان خطأ، إلى النظم ويدخل تحت هذا الاسم، إلا وهو معنى من معاني النحو قد أصيب به موضعه ووضع في حقه أو عومل بخلاف هذه المعاملة، فأزيل عن موضعه، واستعمل في غير ما ينبغي له، فلا ترى كلاما قد وصف بصحة نظن أو فساده، أو وصف بمزية وفضل فيه، إلا وأنت تجد مرجع تلك الصحة وذلك الفساد وتلك المزية وذلك الفصل، إلى معاني النحو وأحكامه، ووجدته يدخل في أصل من أصوله، ويتصل بباب من أبوابه"[3].

وفي قراءة حديثه لهذه المقولات الجامعة لطبيعة البنية اللغوية إلى تداعياتها في مستوى الدلالة يقول أحد الدارسين: "وعلى هذا بنى عبد القاهر فكرته عن النظم، وأفضى به النظر إلى ما انتهى إليه أصحاب مدرسة النحو التحويلي التوليدي من أن اللغة وإن تكن أصواتها ومفرداتها وقواعدها متناهية، فإن الجمل التي ينتجها مستعملو اللغة غير متناهية، لكن **عبد القاهر** ربط ذلك بتنوع (اختيار) التراكيب لدى مستعمل اللغة"[4]، وقد قصد بهذه الملاحظة نظرة **الجرجاني** التالية: "وإذ عرفت أن مدار أمر النظم على معاني النحو، وعلى الوجوه والفروق التي من شأنها أن تكون فيه، فاعلم أن الفروق والوجوه كثيرة ليس لها

---

[1]- الجرجاني أبو بكر عبد القاهر، دلائل الإعجاز في علم المعاني، ص: 84.
[2]-المصدر نفسه، ص: 81.
[3]-المصدر نفسه، ص: 83.
[4]- محمد عبد الله جبر، الأسلوب والنحو دراسة تطبيقية في علاقة الخصائص الأسلوبية ببعض الظاهرات النحوية، دار الدعوة، الإسكندرية، مصر، ط/1، سنة: 1988 ص: 15.

غاية تقف عندها، ونهاية لا تجد لها ازديادا بعدها... ولكن تعرض بسبب المعاني والأغراض التي يوضع لها الكلام، ثم بحسب موقع بعضها عن بعض واستعمال بعضها مع بعض"[1].

وبالنظر فيما سبق مع محاولة إسقاطه على ما يلي نجد اللحمة بين الجرجاني ومفاهيم الأسلوب من خلال ما يلي:

الأسلوب: "حدث يمكن ملاحظته: إنه لساني لأن اللغة أداة بيانه، وهو نفسي لأن الأثر غاية حدوثه وهو اجتماعي لأن الآخر ضرورة وجوده... يستلزم نوعين من النشاط: الأول ويتعلق بالمرسل، والثاني ويتعلق بالمرسل إليه"[2]، وإنه: "نظام متضمن في النظام اللغوي، بمعنى أن قواعده المتناهية قادرة على إنتاج أشكاله غير المتناهية"[3]، و"ينظر إلى الأسلوب على أنه تغييرات تطرأ على الطريقة التي تطرح من خلالها هذه المعلومات مما يؤثر في طابعها الجمالي أو على استجابة القارئ العاطفية"[4].

ولعلنا وجدنا مثل هذه الإشارات في تراثنا فها هو ذا ابن قتيبة يتحدث عن أن فهم أحدنا للقرآن الكريم إنما يرهن لمدى معرفته إجرائية الافتنان في الأساليب: "وإنما يعرف فضل القرآن من كثر نظره واتسع علمه وفهم مذاهب العرب وافتنانها في الأساليب، وما خص الله به لغتها دون جميع اللغات..."[5]. وقد سبقت الإشارة إلى هذا النص في موضع سابق.

الأسلوبية: علم يدرس اللغة ضمن نظام الخطاب، ولكنها –أيضا– علم يدرس الخطاب موزعا على مبدأ هوية الأجناس، ولذا كان موضوع هذا العلم متعدد المستويات، مختلف المشارب والاهتمامات... وما

---

[1]- الجرجاني أبو بكر عبد القاهر، دلائل الإعجاز في علم المعاني، ص: 57.
[2]- العياشي منذر، الأسلوبية وتحليل الخطاب، مركز الإنماء الحضاري، ط/1، حلب سوريا، سنة: 2002، ص: 35.
[3]- المرجع نفسه، ص: 38.
[4]- خفاجي محمد عبد المنعم، محمد السعدي فرهود، عبد العزيز شرف، الأسلوبية والبيان العربي، الدار المصرية اللبنانية، ط/1، القاهرة، مصر، سنة: 1992، ص: 11.
[5]- ابن قتيبة أبو محمد عبد الله بن مسلم، تأويل مشكل القرآن، ص: 17.

دامت اللغة ليست حكرا على ميدان إيصالي دون الآخر، فإن موضوع علم الأسلوبية ليس حكرا –هو أيضا– على ميدان تعبيري دون آخر"[1].

البعد الأسلوبي في التراث النقدي والبلاغي:

يقوم الدرس اللغوي في تراثنا: "منذ نحو ثلاثة عشر قرنا أو تزيد على نُظُم الأداء اللغوي في إطاراتها المتعددة: الصوت، الكلمة، والجملة"[2]، وقد كان الرجاء قائما على: "بيان الصواب في الاستعمال فالصحة اللغوية هي غاية الدراسة النحوية"[3]، فبحوث الدراسات النحوية إنما استهدفت ضمان صحة الكلام "دون أن يكون لها التزام ببيان الأنماط المتفاوتة في (الجودة) مع اتفاقها في الصحة"[4]، ثم تسجل هذه الدراسة أن أمر الجودة والتفاوت فيه: "ترك هذا الأمر لعلوم البلاغة"[5]، فالبلاغة إذن تسعى لضمان قيم الجمالية وإبرازها ولن يتأت لها هذا إلا بالاستناد على القواعد النحوية، وبالمزاوجة بين الأمرين يتحقق البعد الأسلوبي للبلاغة و"لقد عرف التراث العربي الظاهرة الأسلوبية فدرسها ضمن الدرس البلاغي، ولو تأمل المتأمل، لتأكد له أن الدرس البلاغي العربي إنما كان درسا أسلوبيا على وجه الإجمال، وما كان ذلك ليكون إلاّ لأن الدرس اللغوي كان سابقا على الدرس البلاغي في التراث العربي"[6].

ولم نعد في حاجة إلى معاودة التذكير بمسألة التعليق، التي اعتبرناها إحدى أسس النظم وانعكاسها في مستوى التماسك والانسجام حفظا للمعنى من أن يصل إلى متلقيه سالما، مع ضمان الجمالية إذ تصير اللغة مطواعة تتشكل بحسب الخلفيات الشعورية للمبدع، وفي الوقت ذاته وبما تسمح به مثل هذه المطاوعة من صناعة المنبهات الأسلوبية المحققة لتجاوب المتلقين، قد أسلفنا أنّ منطلقات **عبد القاهر** التي تتأسس على القاعدة النحوية المتمثلة في بعض الظاهرات (التقديم والتأخير، الذكر والحذف، الوصل

---

[1]- العياشي منذر، الأسلوبية وتحليل الخطاب، ص: 27،
[2]-خفاجي محمد عبد المنعم، محمد السعدي فرهود، عبد العزيز شرف، الأسلوبية والبيان العربي، ص: 15.
[3]- المرجع نفسه، ص: 15.
[4]- المرجع نفسه، ص: 15.
[5]- المرجع نفسه، ص: 15.
[6]- العياشي منذر، الأسلوبية وتحليل الخطاب، ص: 27، 28.

والفصل، التعرف والتنكير، أضرب الخبر...الخ) جميعها تشكل نقاط تقاطع بين مباحث النحو والبلاغة، وأن التوليفة الفنية هي تلك التي أطلق عليها **عبد القاهر** مصطلح النظم الذي من إفرازاته ضمان الصحة كما رأينا وامتداداته ضمان الجمال: "مفاهيم البلاغة العربية وأسسها وقواعدها هي مفاهيم الجمالية الأدبية في تراث العرب الفكري"[1].

وفي سياق الربط بين نظرية النظم والبعد الأسلوبي، أمكن الحديث من خلال مفردات المقاربة اللغوية الآنفة الذكر، أنها إنما يتم التعاطي معها باعتبارها تراكيب منزاحة عن أصل وضع لغوي تكرّسه القاعدة النحوية وأن الأسلوبية كما هو معروف تقوم في جوهرها على الانحرافات في أسلوب مستعمل اللغة وأن الانزياح في دراسة الأسلوب هو الصانع لقيم المباغتة والمفاجأة حيث كسر أفق توقع المتلقي وبالتالي ضمان استفزاز قدراته دفعا له على طلب المزيد، وليس الانزياح في الدراسات الأسلوبية المعاصرة إلا معادلا لمصطلح العدول التراثي، سواء تعلق الأمر بالتمثلات الإجرائية، أو المقاصد الدلالية ذات الإخراج غير المتوقع "إن هذا المعنى اللغوي لكلمة (العدول) يظهر في المفهوم الاصطلاحي الذي استقر عليه الدرس البلاغي، ذلك أن هناك شبه اتفاق على أن في العدول معنى الخروج أو التّحول عن المألوف، ونقل الكلام من أسلوب إلى أسلوب آخر مطلقا، وهذا الانتقال له أثره الفني والجمالي"[2].

ويمثل الذي ذهب إليه **الجرجاني** في أبعاد النظم الإجرائية إن في مستوى الصيغة أو التراكيب أو الصور، يجد الباحثون ارتباط تلك المظاهر الخارقة للعادة في مستوى اللغة بالجمال، وإن شئت فانظر إليه متحدثا عن المنبه الأسلوبي القائم على العدول (الانزياح) المتمثل في التقديم والتأخير: "باب كثير الفوائد، جم المحاسن، واسع التصرف، بعيد الغاية، لا يزال يغتر عن بديعة، ويفضي بك إلى لطيفة، ولا يزال ترى شعرا

[1]ـ ميشال عاصي، مفاهيم الجمالية والنقد في أدب الجاحظ، مؤسسة نوفل، نقلا عن عبد القادر فيدوح، الجمالية في الفكر العربي، منشورات اتحاد الكتاب العرب، سنة: 1981،ص: 47.

[2]ـالسلمي عبد الرحمن بن رجاء الله، العدول بين صيغ الإفراد والتثنية والجمع في القرآن الكريم، مجلة جامعة أم القرى لعلوم اللغات وآدابها، مكة المكرمة، السعودية، العدد: 12، فيفري: 2014، ص: 142.

يروقك مسمعه، ويلطف لديك موقعه، ثم تنظر فتجد سبب أن راقك ولطف عندك، أقدم فيه شيء، وحوّل اللفظ عن مكان إلى مكان"[1].

أما عن الحذف فيفصح عن امتداده الجمالي باعتباره عدولا عن أصل وضع هو الذكر ما يلي: "باب دقيق المسلك، لطيف المأخذ، عجيب الأمر، شبيه بالسحر، فإنك ترى به ترك الذكر، أفصح من الذكر والصمت عن الإفادة أزيد من الإفادة وتجدك أنطق ما تكون إذا تنطق، وأتم ما تكون بيانا إذا لم تبْن"[2]، ثم يزيد في تعميق الإحساس بجمالية هذا الإجراء الأسلوبي، فيقول: "فإنك تعلم أن رُبَّ حذف هو قلادة الجيد وقاعدة التجويد"[3].

كان بالإمكان ملاحقة عديد المنبهات التي جعلتها الأسلوبية مناط بحثها، وهي شديدة البروز عند **عبد القاهر**، لهذه الاعتبارات المتعلقة بجمع نظرية النظم لمظاهر عبقرية اللغة على التكيف بحسب الحالات الشعورية للمبدعين رغبة منهم في تحقيق الصدق الفني والتأثير التجاوبي، ومعه في ذات الوقت المحافظة على مقولات النحو بحسب مقتضيات التعليق التي رصدنا، انتهى بعض الباحثين في هذه العلاقة إلى القول أنه بالنظر إلى "**عبد القاهر الجرجاني** فسوف نجد (دلائل الإعجاز) بداية لتحرك صحيح نحو نظريته في فهم النص الأدبي ينتهي بها الأمر إلى نوع من التركيز حول دراسة الأسلوب في ذاته من خلال مفهوم النظم وهو مفهوم اعتمد على التركيب اللغوي الذي يتصل باللفظ المنطوق والكلام النفسي"[4].

يعد تراث **عبد القاهر** بحق نقطة فارقة في تطور مباحث الجمالية في البلاغة العربية، وإنه ليس أدل على ذلك من طبيعة معجم المصطلحات الذي مرّ بنا، وربما يكون الرأي هو العمل على كشف مدى عطاء نظرية النظم في سياقها التاريخي، مع محاولة استيعابها استيعابا جادا يحيلها إلى آليات فهم وتحليل تستمد قيمتها من طبيعة الموروث التراثي العام الذي أفرزها، ربما كان ذلك أفيد لنا ولتراثنا ولثقافتنا النقدية

---

[1]- الجرجاني أبو بكر عبد القاهر، دلائل الإعجاز في علم المعاني، ص: 106.
[2]- المصدر نفسه، ص: 146.
[3]- المصدر نفسه، ص: 151.
[4]- للمزيد ينظر محمد عبد المطلب، البلاغة والأسلوبية، مكتبة لبنان ناشرون، ط/1 بيروت، لبنان سنة: 1994، ص: 260 وما بعدها.

المعاصرة، من محاولة إيجاد العلاقة بين التراث وما استجد في الثقافات الغربية الحديثة والمعاصرة، حتى لا تظل ثقافتنا في موقف الاستجداء ومحاولة التقرب، ففي ذلك ربما شعور بقلة الحيلة وضعف الموقف، وربما صلح أن ننتهي إلى نتيجة انتهى إليه أحمد الشايب بعد طول نظر وحديث عن مسألة النظم وعلاقتها بتفعيل عناصر الجمالية في البناء الأسلوبي رابطا ذلك ببقية الفنون الجميلة: "ولكن ما تفرد به عبد القاهر هو بحث الوسيلة التي تحقق هذه المقارنة وهذا التشابه، وتجعل الفن القولي مسبوكا محكم الأجزاء مثل التمثال أو اللوحة أو الخاتم... لا يمكن النظر إلى جزئياته المفتتة، ولكن ينظر إليه باعتباره كلاّ متماسكا"[1].

[1]- الشايب أحمد، دراسة الأسلوب بين المعاصر والتراث، دار غريب، القاهرة، مصر سنة: 1998، ص: 103.

المحاضرة الثامنة: نظرية النظم والبنيوية

النظم وإرهاصات الاتجاه البنيوي:

وقفنا فيما سبق كما صار بيّنا على قضايا نظرية النظم، وربما صار من السهل معرفة ارتباط هذه النظرية بمسعى مقاربة عناصر اللغة بما يسمح بالكشف عن مضامينها من ناحية، ومن ناحية أخرى تحسس مواطن الجمالية التي يقوم على سنن، منها اختراق السائد العام المتعارف عليه لصالح بنيات مستجدة، تميّزها الخصوصية، الخصوصية كما يراها **عبد القاهر** حيث التبرير الموضوعي لها القائم على ملاحظات الإجرائية المتمثلة في التقديم والتأخير، الذكر والحذف، أضرب الخبر وأنواعه، أنواع الحال وهكذا، وهي في مجموعة مظاهر لانحراف الاستعمال الفردي وعدوله عن الجاهز العام من القوالب النمطية، بذلك تكون اللغة في معناها العام هي صانعة التواصل المفضي إلى الاتفاق بين مستعمليها في مقابل اللغة المعدولة، حيث شأن البراعة والخصوصية، وأن المستوى الأول يضمن الصحة صحة الكلام، في مقابل ضمان قيم لفت الانتباه وصناعة التأثير، وهو كما نستطيع التسجيل حديث سابق عن البنية اللغوية العميقة، والبنية اللغوية السطحية.

ربما استطعنا أن نجعل هذه الملاحظات منطلقنا في مقاربة عنوان هذه الوقفة، نظرية النظم وإرهاصات الاتجاه البنيوي، يقول **عبد العزيز حمودة:** "قد كان (تينيانوف) أول من استخدم لفظة (بنية) في السنوات المبكرة من العشرينيات وتبعه (رومان ياكبسون) الذي استخدم كلمة البنيوية لأول مرة عام 1929"[1].

ويذكر أحد الدارسين ملخصا مفهوم البنيوية وعلاقتها بدراسة اللغة نوجزه فيما يلي: "أن اللغويات البنيوية عند تعاملها مع النص اللغوي تقوم بالبدء من نقطة صغرى... مثل الفونيمات، ثم الكلمات، ثم النسق الأصغر وهو الجملة، أما المرحلة التالية أكثر تركيبية وتعقيدا، وهي ربط هذه الجمل الأنساق الصغرى

[1]- عبد العزيز حمودة، المرايا المحدبة من البنيوية إلى التفكيك، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، العدد: 232، أفريل: 1998، ص: 163.

وتجميعها داخل نسق أكبر هو النص... وهناك نسق ثالث هو النسق العام... وهو نسق نتحرك في اتجاهه انطلاقا من النصوص الفردية، أو منطلقين منه في اتجاه النص الفردي في تحليل تطبيقي يؤكد اتفاق النص المفرد مع أو النسق الأصغر، أو اختلافه منه النسق أو النظام العام"[1].

ولعله في التعريفين اللغوي والاصطلاحي لدلالة البنية ما يؤشر لبعض هذه الملاحظات، فهي: "ما بنيته وهو البنى والبني، كأن البنية الهيئة التي بني عليها"[2]، "والبنية بكسر الياء وضمها ما بنيته وهو البني... والبنية: الهيئة التي بني عليها"[3]، وأما البناء: "هو وضع شيء على شيء على صفة يراد لها الثبوت والدوام"[4]، وأما في الاصطلاح ذي العلاقة بما نحن فيه، فهي عند **جان بياجيه**: "فهو نسق من التحولات له قوانينه الخاصة، باعتباره نسقا، علما بأن من شأن هذا النسق أن يظل قائما ويزداد ثراء بفضل الدور الذي تقوم به تلك التحولات نفسها، دون أن يكون من شأن هذه التحولات أن تخرج عن حدود ذلك النسق..."[5] ، وهي أي "البنية تتألف من عناصر يكون من شأن أي تحول يعرض للواحد منها أن يحدث تحولا في باقي العناصر الأخرى"[6].

ربما أفادنا هذا التلخيص في محاولة إيجاد بعض فضاءات التقاطع بين النظم من جهة والبنيوية من جهة أخرى، لا نريد أن نعيد التذكير بمفهوم النظم ولكن استدعاء بعض الملاحظات واجب تحصيلا لما نريده في هذا المقام، ولعل أهم ذلك عدم اعتداد **عبد القاهر** بالألفاظ مفردة، ولعلنا رصدنا ذلك في حديثه عن أهم منجز ابتغاه، وهو محاولة تدليله على أحقية القول بأولوية الإعجاز البياني في القرآن الكريم، وإذا شئنا نظرنا إليه وهو يقول: "فقيل لنا: قد سمعنا ما قلتم، فخبّرونا عنهم، عن ماذا أعجزوا؟ أعن معان من دقة معانيه وحسنها وصحتها في العقول؟ أم عن ألفاظ مثل ألفاظه؟، فإن قلتم: عن الألفاظ، فماذا

---

[1]ـأبو رحمة عماد محمود علي، نظرية النظم عند الجرجاني وعلاقتها بمفهوم البنية في النقد الحديث، التاريخ: 2001/12/20، الألوكة للإصدارات والمسابقات، موقع الألوكة..

[2]ـ ابن منظور جمال الدين محمد أبو الفضل، لسان العرب، مادة (بناء)، ص: 93/14.

[3]ـ أحمد مطلوب، معجم مصطلحات النقد العربي القديم، مكتبة لبنان ناشرون، ط/1 بيروت، لبنان، سنة: 2001، ص: 130..

[4]ـ جميل صليبا، المعجم الفلسفي، دار الكتاب اللبناني، بيروت، لبنان، ص: 217/1..

[5]ـ زكريا إبراهيم، مشكلة البنية، مكتبة القاهرة، ط/1، القاهرة، مصر، ص: 30.

[6]ـ المرجع نفسه، ص: 31

أعجزهم من اللفظ أم ما بهرهم منه؟ فقلنا: أعجزهم مزايا ظهرت لهم في نظمه وخصائص صادفوها في سياق لفظه، وبدائع راعتهم من مبادئ آيه ومقاطعها، ومجاري ألفاظها ومواقعها"[1]، فهذا هو ذا يتحدث عن اللفظ باعتبار المقام الذي تنزل فيه، فقد ذكر بالنص لفظة السياق باعتباره جوهر حقيقة البنية حتى تتكامل فيه الألفاظ خدمة لمعناها الفردي ثم في بنية التركيب في الجملة، ثم باعتبار النص حيث الدلالة العامة.

ثم يذكر بحقيقة ذات صلة بالمعنى المراد التنويه به في علاقة النظم بالمفهوم الحديث للبنيوية، هذه الحقيقة هي أن القوم أي العرب أهل الفصاحة والبيان لما نظر لأساليب القرآن الكريم عامة، يكون الذي: "بهرهم أنهم تأملوه سورة سورة، وعشرا عشرا، وآية آية، فلم يجدوا في الجميع كلمة ينبو بها مكانها، ولفظة ينكر شأنها، أو يرى أن غيرها أصلح هناك أو شبه، أو أحرى وأخلق، بل وجدوا اتساقا بهر العقول وأعجز الجمهور، ونظاما والتئاما، وإتقانا وإحكاما..."[2] ، إذا شئنا استدعينا من هذا الشاهد مجموعة من الكلمات الدالة دلالة قاطعة على حرص **الجرجاني**، ومن خلال نظرية النظم على أولوية التركيز على بنية الكلام باعتبارها عنصر تقوم على أساسه مدلولات الخطاب، فإن تكاملت كانت أوفى إبلاغ الدلالة تامة غير منقوصة بعيدة عن التفلك والإرباك، ولعل من المصطلحات المشار إليها (ينبو، ينكر شأنها، غيرها أصلح اتساقا، نظاما، التئاما، إتقانا، إحكاما)، إنه إن لم تؤشر هذه المفردات إلى حديث البنية المتينة الضامة لدلالات الكلام ومعانيه، فأي شيء بعده تقوم عليها، ثم يمكننا التذكير بقول في ذات السياق: "فقد اتضح إذن اتضاحا لا يدع للشك مجالا، أن الألفاظ لا تتفاضل من حيث هي ألفاظ مجردة، ولا من حيث هي كلم مفردة وأن الفضيلة وخلافها، في ملاءمة معنى اللفظة لمعنى التي تليها"[3].

ويظل حديث الألفاظ عنده بالمعنى الذي يراه **عبد القاهر** انطلاقا من مفاهيم نظرية النظم التي لا تقيم حاجزا بينه وبين المعنى، يقول بما يؤدي طبيعة نظرته للغة باعتبارها كيانا شديد التلاحم "إن الألفاظ إذا

[1]- الجرجاني أبو بكر عبد القاهر، دلائل الإعجاز في علم المعاني، ص: 39.
[2]- المصدر نفسه، ص:39
[3]-المصدر نفسه، ص:46.

كانت أوعية للمعاني، فإنها لا محالة تتبع المعاني في مواقعها، فإذا وجب لمعنى أن يكون أولا في النفس، وجب للفظ الدال عليه أن يكون مثله أولا في النطق..."[1].

فللحقيقة نسجل قوله بالاندماج الحاصل في بنية الكلام الناتج عن طبيعة إدماج عناصر اللغة بالحالات النفسية للمتكلمين، ذلك جميعه في ضوء مقررات مسألة التعليق بما تتيحه مفردات النحو العربي وقد أسلفنا الحديث عن ضمان صحة اللغة من ناحية، وتأمين جانب الجمال للإبلاغ والبلاغة، ذلك الذي يراه **الجرجاني** إحدى حقوق المتلقي واجبة الأداء، لقد ذكر الذي ذكرنا، وكان في المقدور إيراد مزيد من الشواهد الذاهبة في هذا الاتجاه، ولكن حسبنا هذا القدر محفزا على طلب المزيد، ونشير ختاما أنه ليس من الرؤية الراجحة إجراء مثل هذه الإسقاطات، فليس عيبا أن تتطور الأفكار في سياقها الإنساني، وربما يظل التاريخ يسجل لكل أمة عطاءها الذي يعد إفرازا طبيعيا لميراثها بكل ما يحمله.

[1]- المصدر نفسه، ص:46.

الملحق

القول بالصرفة في إعجاز القرآن الكريم

ملاحظات موجزة حول مسألة كان لها الأثر الكبير في بروز الدراسات البلاغية عامة ونظرية النظم على الخصوص:

نشأة القول بالصرفة:

يذهب الدكتور عبد الرحمن بن معاضة الشهري، صاحب كتاب "القول بالصَّرْفَةِ في إعجاز القرآن عرض ونقد"* إلى أن: "إنما كان القول بالصرفة من الأقوال التي قيلت في إعجاز القرآن بعد بدء التصنيف والجدل في إعجاز القرآن...وقد جاء بيان نشأة القول بالصرفة أقوال للعلماء الباحثين، كما يمكن إجمال هذه الأقوال في الآتي:

الأول: أن أوّل من قال بها وابتدعها واشتهرت على يده هو إبراهيم بن سيار النظام البصري المعتزلي، المتوفى سنة (231هـ)، ينقل عن أبي الحسن الأشعري (ت 324هـ) قوله: "وقال النظام: الآية والأعجوبة في القرآن ما فيه من الإخبار عن الغيوب، فأما تأليفه والنظم، فقد كان يجوز أن يقدر عليه العباد لولا أن الله منعهم بمنع وعجز أحدثهما فيهم".

الثاني: إن أصل القول بالصرفة التي قال بها بعض المسلمين في إعجاز القرآن مأخوذة من البراهمة الهنود، حيث ذكر عنهم في بعض الكتب التي تحدثت عن عقائدهم أنهم يرون وجه إعجاز كتابهم المقدس الذي يسمونه بـ (البيذ)-(الفيدا) هو في الصّرف عن معارضته احتراما وتقديرا له ... وقد ذهب إلى هذا الرأي الشيخ محمد أبو زهرة (المعجزة الكبرى، ص:69 وما بعدها)، وردّ هذا الرأي الدكتور محمد أبو موسى...

*ينظر عبد الرحمن بن معاضة، القول بالصرفة في إعجاز القرآن عرض ونقد، دار ابن الجوزي، ط/1، سنة: 1436هـ، المملكة العربية السعودية، ص: 28 وما بعدها.

تعريف الصرفة: يذكر الباحث د. إبراهيم بن منصور التركي*

- **الصرفة لغة**: أن تصرف إنسانا عن وجه يريده إلى مصرف غير ذلك
- **الصرفة اصطلاحا**: صرف الله هِمَمَ العرب عن معارضة القرآن

القائلون من العلماء بالصرفة

ثم يلخص هذا الباحث أراء القائلين بالصرفة بكثير من الدقة، يقول: "يلحظ أن الصرفة اتخذت ثلاث صور، الأولى: أن الله صرف العرب عن أن يأتوا بمثل هذا القرآن وهو في مقدورهم وهذا هو رأي النظام، والثانية: أن الله صرف العرب عن معارضة القرآن –وإن لم يكن في مقدورهم– حتى لا يلتبس الأمر على العامة، وهذا رأي الجاحظ...، والثالثة: أن الله صرف العرب عن معرفة العلوم التي يحتاجون إليها في المعارضة لذلك لم يستطيعوا معارضته، وهذا هو قول الشريف المرتضى وابن سنان.

أبرز العلماء الذين رفضوا فكرة الصرفة

من أوائل من رفض القول بالصرفة الخطابي (388هـ) مستدلا بقوله سبحانه وتعالى ﴿قُلْ لَئِنْ اجْتَمَعَتِ الإِنْسُ وَالجِنُّ عَلى أَن يَاتُوا بِمِثْلِ هَذَا القُرْآنِ لاَ يَاتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كاَنَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ الإسراء/88.

ومن العلماء الذين أنكروا الصرفة أيضا الباقلاني (304هـ)، ومنهم القاضي عبد الجبار (415هـ) مستدلا بذات الآية الكريمة الآنفة الذكر، ثم يأتي الإمام عبد القاهر (471هـ) ويرفض الصرفة ويسعى سعيا حثيثا لإبطالها بإيراده جملة من الأدلة القاطعة على ذلك منطلقا من المنطلق نفسه

*ينظر د. إبراهيم بن منصور التركي، القول بالصرفة في إعجاز القرآن الكريم عرض ودراسة، مجلة جامعة أم القرى، مكة المكرمة، المملكة العربية السعودية، العدد: 2، يوليو 2009، ص: 157 وما بعدها.

الذي اعتمده الخطابي، أي آية الإسراء/88، منتصرا طبعا للقول ببيان القرآن الكريم المعجز الذي سوف نعالجه عند التعرض لنظرية النظم.

ويخلص البحث بعد مقاربة مسألة الصرفة من جميع أوجهها إلى الملاحظة التالية هي أنه برغم الأصداء التي أحدثها القول بالصرفة في إعجاز القرآن الكريم، إلا أن طرح هذه القضية كان خيرا على البلاغة العربية، إذ دفع العلماء إلى البحث عن الوجه الحقيقي لإعجاز القرآن الكريم، فكان أن توصّلوا إلى أن القرآن معجز ببلاغته.

الخاتمة

خاتمة

نستطيع أن نخلص مما تقدم إلى جملة من الملاحظات يمكن أن نوجزها فيما يلي:

1- أثر القرآن الكريم باد بشكل لا يقبل المواربة في لفت الانتباه إلى قضايا اللغة، ومدى ما تكتسيه من أهمية إن في مستوى مباحث الصيانة أو مباحث الجمال.

2- إن الانتصار لعنصر البيان في تفسير الإعجاز في التعبير القرآني يسنده البحث الموضوعي القائم على أساس الملاحظة العابرة لجميع آي القرآن الكريم، بخلاف بعض الآراء الأخرى.

3- إن مباحث الإعجاز كانت وراء إثراء عناصر الجمالية والذوق في مقاربة قضايا البنيات اللغوية في مستوى الصوت، والصيغة، والتراكيب، والصور.

4- إن القول بمفهوم نظرية النظم يعكس مدى تاريخية المتابعة والتطور التي عرفها الدرس النقدي البلاغي.

5- إن مفردات نظرية النظم (النظم، التأليف، التعليق، معاني النحو، المعاني الثواني، العدول، اللفظ، المعنى...) دلّت على مقدار مدى تماهي مباحث أهل اللغة والبلاغيين والمفسرين والفلاسفة.

6- إن هذه المفردات تدل على مقدار الوعي بالعناصر المشكلة للبنيات اللغوية المفردة والمركبة بالمستوى الذي يسمح بتفكيكها وإعادة بنائها على أسس دلالية سليمة.

7- إن عناصر التطبيق التي عمد إليها عبد القاهر والمتمثلة في مباحث (التقديم والتأخير، الفصل والوصل، الخبر وأنواعه، الحال، وطبيعة البنية في تشكيل الصورة...) جميع ذلك دل على تكامل الرؤية في مقاربات عبد القاهر، وربما بالمراجعة المعاصرة أمكن الحديث عن الانتقال من مقاربة العبارة إلى مقاربة النص.

8- إن توحيد الرؤية إزاء الإبداع بقراءة الظاهرة النحوية قراءة بلاغية جمالية مما يحسب فيه الفضل لتراثنا، حيث يصل قمة التشكل مع جهود عبد القاهر ومن جاء بعده ممن سعوا لتطوير رؤاه في هذا المجال.

9- يدعو الوعي بتطور المصطلحات عندنا وعند غيرنا بضرورة الاستثمار في مفردة النظم وامتداداتها النظرية والتطبيقية في قيام نظرية جمالية تعد إفرازا لطبيعة موروثنا الثقافي النقدي والبلاغي، بالقدر الذي تكون فيه الممارسة النقدية أصيلة في مشربها وأصيلة أيضا في مسعاها.

10- نرى من خلال التعاطي مع الجانب التطبيقي لنظرية النظم أن نجعل من قراءة الزمخشري قديما وابن عاشور حديثا المثل في كيفية اعتمادها آلية بحث عن جمالية لغة القرآن ومدى تأثيرها، فالتفسير اللغوي الذي برز مع الرجلين قد عكس عمليا جميع الملاحظات النظرية لنظرية النظم.

11- إنه في تجربة الدكتور صالح بلعيد مع مباحث نظرية النظم ما يمكّن للاطمئنان على مدى قدرة مسألة النظم على استيعاب مختلف الملاحظات السابقة بل يزيد عنها، فقد أشار في مقدمة كتابه "نظرية النظم" إلى ذلك عندما قال: "وهكذا كان تأكيدي على ما له علاقة بهذه النظرية لأنها المنزلة العليا لصناعة الكتابة عن طريق النظم اللغوي عامة"[1].

12- لقد كان للقول بالصرفة لدى بعضهم وإن لم يصادف القبول عند الكثيرين بل اعترض عليه الأغلب الأعم من العلماء، إلا أن أثرا بارزا قد تركه في مستوى البحث البلاغي عامة واستقصاء فاعلية نظرية النظم في تفسير مسألة الإعجاز في التعبير القرآني.

حسبنا هذا القدر مما يمكن أن ينتهي إليه الدارس لما سلف من أفكار، مع الإفادة بأن عناصر كثيرة يمكن استخلاصها في هذا المجال.

[1]- صالح بلعيد، نظرية النظم، دار هومة، ط/3، سنة: 2009، الجزائر، ص: 7.

فهرس
المصادر والمراجع

فهرس المصادر والمراجع

أولا: المصادر

- **القرآن الكريم برواية ورش عن نافع.**

1- ابن الأثير أبو الفتح نصر الله ضياء الدين، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية، بيروت، لبنان سنة: 1420هـ.

2- ابن الأثير أبو الفتح نصر الله ضياء الدين، الجامع الكبير في صناعة المنظوم من الكلام والمنثور، تحقيق: مصطفى جواد، مطبعة المجمع العلمي، سنة: 1375هـ.

3- ابن المقفع عبد الله، (142هـ)، الأدب الصغير، قرأه وعلق عليه: وائل بن حافظ بن خلف، دار الأرقم الإسكندرية، مصر، (د.ت).

4- ابن جني أبو الفتح عثمان، الخصائص، تحقيق: محمد علي النجار، دار الكتب المصرية القاهرة، مصر، ط/2، سنة: 1957.

5- ابن شاكر محمد الملقب بصلاح الدين (764هـ)، فوات الوفيات، تحقيق: إحسان عباس دار صادر، بيروت، لبنان، ط/1، سنة: 1974.

6- ابن فارس أبو الحسين أحمد، مقاييس اللغة، تحقيق عبد السلام هارون، دار الفكر، سنة: 1979.

7- ابن فارس أبو الحسين أحمد، الصاحبي في فقه اللغة، الناشر: محمد علي بيضون، ط/1 سنة: 1997.

8- ابن قتيبة أبو محمد عبد الله بن مسلم، الشعر والشعراء، تحقيق: أحمد محمد شاكر، دار الحديث، القاهرة، مصر، سنة: 1377هـ.

9- ابن قتيبة أبو محمد عبد الله بن مسلم، تأويل مشكل القرآن، تحقيق: إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.

10- ابن كثير، تفسير القرآن الكريم، تحقيق: سامي بن محمد سلامة، دار طبية للنشر والتوزيع، ط2، سنة 1999.

11- ابن منظور جمال الدين، لسان العرب، دار صادر، بيروت، لبنان، ط/3، سنة: 1414هـ.

12- ابن هشام عبد الملك، السيرة النبوية لابن هشام، ط/2، تحقيق: مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ الشلبي، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي، القاهرة، مصر سنة: 1955.

13- أبو الفضل إبراهيم محمد ، المكتبة العصرية، بيروت لبنان، سنة: 1419هـ.

14- الأندلسي أبو محمد عبد الحق بن عطية، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز تحقيق: عبد السلام، عبد الشافي محمد، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط/1، سنة: 1422هـ.

15- الباقلاني أبو بكر، إعجاز القرآن، تحقيق: السيد أحمد صقر، دار المعارف، القاهرة مصر، ط/5، سنة: 1997.

16- البغدادي قدامة بن جعفر، نقد الشعر، مطبعة الجوائب، ط/1، القسطنطينية، سنة: 1302هـ.

17- التميمي ابن حيان محمد، السيرة النبوية وأخبار الخلفاء لابن حيان، صححه وعلق عليه: الحافظ السيد عزيز بك وجماعة من العلماء، ط/3، بيروت، لبنان، الكتب الثقافية سنة: 1417هـ.

18- الجاحظ عمرو بن بحر أبو عثمان، الحيوان، دار الكتب العلمية، ط/2، بيروت، لبنان سنة: 1424هـ.

19- الجاحظ عمرو بن بحر أبو عثمان، رسائل الجاحظ، تحقيق وشرح: عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، سنة: 1964.

20- الجرجاني أبو بكر القاهر، دلائل الإعجاز في علم المعاني، تحقيق: عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط 1، سنة: 2001.

21- الجرجاني أبو بكر عبد القاهر، دلائل الإعجاز في علم المعاني، تحقيق: محمود محمد شاكر، مطبعة المدني، القاهرة، مصر، ط/3، سنة: 1992.

22- الجرجاني أبو بكر عبد القاهر، دلائل الإعجاز في علم المعاني، تحقيق: ياسين الأيوبي، المكتبة العصرية، ط/1.

23- الجرجاني أبو بكر عبد القاهر، أسرار البلاغة، قرأه وعلق عليه: محمود محمد شاكر الناشر: مطبعة المدني، القاهرة، مصر.

24- الجرجاني الشريف، الحاشية على المطول، قرأه وعلق عليه: رشيد أعرضي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط/1، سنة: 2007.

25- الحصري، زهرة الآداب، نقلا عن محمود السيد شيخون، الإعجاز في نظم القرآن ط/1، القاهرة، مصر، سنة: 1978، الناشر: مكتبة الكليات الأزهرية.

26- الحموي شهاب الدين ياقوت (626هـ)، معجم البلدان، دار صادر، بيروت، لبنان، ط/2 سنة: 1995.

27- الخطابي أبو سليمان بن محمد بن الخطاب، بيان إعجاز القرآن، ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، سلسلة ذخائر العرب (16)، حققها وعلق عليها: محمد خلف ومحمد زغلول سلامة، دار المعارف ط/3، القاهرة، مصر، سنة: 1976.

28- الرماني علي بن عيسى، النكت في إعجاز القرآن، ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، سلسلة ذخائر العرب (16)، حققها وعلق عليها: محمد خلف الله ومحمد زغلول سلامة، دار المعارف، ط/3، القاهرة، مصر، سنة: 1976.

29- الزبيدي محمد بن محمد، تاج العروس من جواهر القاموس، تحقيق: مجموعة من المحققين، دار الهداية، (د.ت)، (د.ط).

30- الزمخشري أبو القاسم محمود جار الله، أساس البلاغة، تحقيق: محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط/1، سنة: 1998.

31- الزمخشري أبو القاسم محمود جار الله، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، ط/3، سنة: 1407هـ.

32- السبكي أحمد علي بهاء الدين، عروس الأفراح، تحقيق: عبد الحميد هنداوي، المكتبة العصرية، بيروت، لبنان، ط/1، سنة: 2003.

33- السيوطي أبو الفضل جلال الدين عبد الرحمن، معترك الأقران في إعجاز القرآن ضبطه وصححه شمس الدين، دار الكتب العلمية، ط/1، سنة: 1988.

34- السيوطي أبو الفضل جلال الدين عبد الرحمن، الإتقان في علوم القرآن، تحقيق: مركز الدراسات القرآنية، المدينة المنورة، السعودية، مجمع فهد لطابعة المصحف الشريف سنة: 1426هـ.

35- السيوطي أبو الفضل جلال الدين عبد الرحمن، الإتقان في علوم القرآن، الهيئة المصرية العامة للكتاب، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، القاهرة، مصر، سنة: 1974.

36- العسكري أبو هلال الحسن، الصناعتين، تحقيق: علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، بيروت، لبنان، سنة: 1419هـ.

37- العلوي يحي بن حمزة، الطراز لأسرار البلاغة وعلوم الإعجاز، المكتبة العصرية بيروت، لبنان، ط/1، سنة: 1423هـ.

38- الفيروز أبادي مجد الدين، القاموس المحيط، تحقيق: مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، ط/8، سنة: 2005.

39- القرطاجني أبو الحسن حازم، منهاج البلغاء وسراج الأدباء، تقديم وتحقيق: محمد الحبيب ابن خوجة الدار العربية للكتاب، تونس، سنة: 2008.

40- القزويني الخطيب جلال الدين، التلخيص في علوم البلاغة، ضبطه وشرحه: عبد الرحمن البرقوقي، دار الفكر العربي، سنة: 1932.

41- الكندي امرؤ القيس بن حجر بن حارث، ديوان امرئ القيس، اعتنى به: عبد الرحمن المصطاوي، دار المعرفة، بيروت، لبنان، ط/2، سنة: 2004.

ثانيا: المراجع

1- ابن عاشور محمد الطاهر، التحرير والتنوير، الدار التونسية للنشر، سنة: 1984، تونس الجمهورية التونسية.

2- ابن عقيل موسى محمد بن حسن، إعجاز القرآن الكريم بين الإمام السيوطي والعلماء دراسة نقدية مقارنة، الأندلس الخضراء للنشر والتوزيع، ط/1، سنة: 1997، جدة السعودية.

3- أبو موسى محمد محمد، الإعجاز البلاغي، مكتبة وهبة، القاهرة، مصر، سنة: 1997.

4- الأخضر جمعي، اللفظ والمعنى في التفكير النقدي والبلاغي عند العرب، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، سوريا، سنة: 2001.

5- الحنين ناصر بن عبد الرحمن بن ناصر، النظم القرآني في آيات الجهاد، مكتبة التوبة ط/1، الرياض، المملكة العربية السعودية، سنة: 1996.

6- الحسيني فاضل ضياء الدين، عروض نظرية النظم عند الإمام عبد القاهر الجرجاني ومباحثها، أروقة، عمان، الأردن، سنة: 2015.

7- الحسيني ضياء الدين فاضل، معاني النحو الجرجانية، أروقة للدراسات والنشر، ط/1 عمان، الأردن، سنة: 2010.

8- الحمصي نعيم، فكرة إعجاز القرآن –منذ البعثة المحمدية حتى عصرنا الحاضر– نقد وتعليق، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، ط/1، سنة: 1980.

9- الخالدي صلاح عبد الفتاح، إعجاز القرآن البياني ودلائل مصدره الرباني، دار عمار للنشر والتوزيع، الأردن، ط/1، سنة: 2000.

10- الخطيب عبد الكريم، الإعجاز في دراسات السابقين، دار المعرفة، بيروت، لبنان، ط/2 سنة: 1975.

11- الخطيب عبد الكريم، الإعجاز في دراسات السابقين، دار الفكر، ط/1، سنة: 1974.

12- الرافعي مصطفى صادق، إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، المكتبة العصرية، صيدا بيروت، سنة: 2003.

13- الرافعي مصطفى صادق، إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، دار الكتاب العربي، ط/8، بيروت، لبنان، سنة: 2005.

14- الزرقاني محمد عبد العظيم، مناهل العرفان في علوم القرآن، حققه واعتنى به: فواز أحمد زمرلي، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، سنة: 1995.

15- السامرائي فاضل صالح ، من أسرار البيان القرآني، دار الفكر، ط/1، سنة: 2009.

16- السامرائي فاضل صالح، بلاغة الكلمة في التعبير القرآني، شركة العاتك لصناعة الكتاب للطباعة والنشر والتوزيع، ط/2، القاهرة، مصر، سنة: 2006.

17- الشايب أحمد، دراسة الأسلوب بين المعاصر والتراث، دار غريب، القاهرة، مصر سنة: 1998.

18- العشماوي محمد زكي ، قضايا النقد الأدبي بين القديم والحديث، دار النهضة العربية بيروت، لبنان، سنة: 1979.

19- العماري علي محمد حسين ، قضية اللفظ والمعنى وأثرها في تدوين البلاغة العربية مكتبة وهبة، القاهرة، مصر، ط/1، سنة: 1999.

20- العياشي منذر، الأسلوبية وتحليل الخطاب، مركز الإنماء الحضاري، ط/1، حلب سوريا، سنة: 2002.

21- المطغي عبد العظيم إبراهيم محمد، خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية، مكتبة وهبة، ط/1، سنة: 1992.

22- أحمد محمد أمين إسماعيل، الإعجاز البلاغي لتحولات النظم القرآني في المتشابه من الألفاظ والتراكيب، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط/1، سنة: 2011.

23- أحمد مطلوب، أساليب بلاغية، وكالة المطبوعات، ط/1، الكويت، سنة: 1980.

24- أحمد مطلوب، عبد القاهر الجرجاني بلاغته ونقده، دار العلم للملايين، ط/1، بيروت لبنان، سنة: 1973.

25- أحمد مطلوب، معجم مصطلحات النقد العربي القديم، مكتبة لبنان ناشرون، ط/1 بيروت، لبنان، سنة: 2001.

26- أحمد محمد ويس، الانزياح في التراث النقدي والبلاغي، اتحاد الكتاب العرب، دمشق سوريا، سنة: 2002.

27- أحمد ياسوف، جماليات المفردة القرآنية، دار المكتبي للطباعة والنشر والتوزيع، ط/2 دمشق، سوريا، سنة: 1999.

28- إبراهيم مصطفى، إحياء النحو، مؤسسة هنداوي، القاهرة، مصر، سنة: 2014.

29- إبراهيم هدد، شرح دلائل الإعجاز، دروس مباشرة من جامع الأزهر الشريف.

30- إحسان عباس، تاريخ النقد عند العرب، دار الثقافة، بيروت، لبنان، ط/4، سنة: 1992.

31- بدوي طبانة، البيان العربي دراسة تاريخية فنية في أصول البلاغة العربية، مطبعة الرسالة، ط/2، القاهرة، مصر، سنة: 1958.

32- بنت الشاطئ عائشة عبد الرحمن، الإعجاز البياني للقرآن ومسائل ابن الأزرق، دار المعارف، القاهرة، مصر، سنة: 1971.

33- جميل صليبا، المعجم الفلسفي، دار الكتاب اللبناني، بيروت، لبنان.

34- حنفي محمد شرف، إعجاز القرآن البياني بين النظرية والتطبيق، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، الكتاب الرابع، الجمهورية العربية المتحدة، سنة: 1970.

35- خفاجي محمد عبد المنعم، محمد السعدي فرهود، عبد العزيز شرف، الأسلوبية والبيان العربي، الدار المصرية اللبنانية، ط/1، القاهرة، مصر، سنة: 1992.

36- درويش الجندي، نظرية عبد القاهر في النظم، مكتبة نهضة القاهرة، مصر، سنة: 1960.

37- زكريا إبراهيم، مشكلة البنية، مكتبة القاهرة، ط/1، القاهرة، مصر.

38- سامي محمد هشام حريز، نظرات من الإعجاز البياني في القرآن الكريم نظريا وتطبيقيا، دار الشروق، عمان، الأردن، سنة: 2006.

39- سيد قطب، التصوير الفني في القرآن، دار الشروق، ط/16، القاهرة، مصر، سنة: 2002.

40- شريف علاونة، النقد الأدبي في الأندلس عصر المرابطين والموحدين، وزارة الثقافة ط/1، عمان، الأردن، سنة: 2005.

41- شوقي ضيف، البلاغة تطور وتاريخ، دار المعارف، ط/9، القاهرة، مصر، سنة: 1965.

42- عبد الحكيم راضي، نظرية اللغة في النقد العربي، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة مصر، سنة: 2003.

43- عبد الرحمن بن معاضة، القول بالصرفة في إعجاز القرآن عرض ونقد، دار ابن الجوزي، ط/1، سنة: 1436هـ، المملكة العربية السعودية.

44- عبد العزيز حمودة، المرايا المقعرة نحو نظرية نقدية عربية، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، سنة:2001.

45- عبد العزيز حمودة، المرايا المحدبة من البنيوية إلى التفكيك، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، العدد: 232، أفريل: 1998.

46- عبد العزيز عبد المعطي عرفة، من بلاغة النظم العربي، عالم الكتب، ط/2، بيروت لبنان، سنة: 1984.

47- عبد الفتاح لاشين، بلاغة القرآن في آثار القاضي عبد الجبار وأثره في الدراسات البلاغية، دار الفكر العربي، مطبعة دار القرآن، القاهرة، مصر، سنة: 1978.

48- عبد القادر حسين، المختصر في تاريخ البلاغة، دار غريب، القاهرة، مصر، سنة: 2001.

49- عمر إدريس عبد المطلب، حازم القرطاجني حياته ومنهجه البلاغي، دار الجنادرية للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، سنة: 2009.

50- فضل حسن عباس، إعجاز القرآن الكريم، الجامعة الأردنية، عمان، الأردن، سنة: 1991.

51- محمد الطاهر درويش، في النقد الأدبي عند العرب، نقلا عن مصطفى عبد الرحمن إبراهيم في النقد الأدبي القديم عند العرب، مكة للطباعة، القاهرة مصر، سنة: 1998.

52- محمد خطابي، لسانيات النص مدخل إلى انسجام الخطاب، المركز الثقافي العربي ط/1، بيروت، لبنان، سنة: 1991.

53- محمد كاظم البكاء، المدخل النحوي للإعجاز القرآني عند الجرجاني (نظرية النظم)، معهد المخطوطات العربية، سلسلة الأطروحات (5) المهندسين ، القاهرة ط/1 ، سنة: 2021.

54- محمد عبد الله جبر، الأسلوب والنحو دراسة تطبيقية في علاقة الخصائص الأسلوبية ببعض الظاهرات النحوية، دار الدعوة، الإسكندرية، مصر، ط/1، سنة: 1988.

55- محمد عبد المطلب، البلاغة والأسلوبية، مكتبة لبنان ناشرون، ط/1، بيروت، لبنان سنة: 1994.

56- محمود محمد شاكر، مداخل إعجاز القرآن، مطبعة المدني، القاهرة، مصر، سنة: 2002.

57- مصطفى عبد الرحمن إبراهيم، في النقد الأدبي القديم عند العرب، مكة للطباعة، القاهرة مصر، سنة: 1998.

58- ميشال عاصي، مفاهيم الجمالية والنقد في أدب الجاحظ، مؤسسة نوفل، نقلا عن عبد القادر فيدوح، الجمالية في الفكر العربي، منشورات اتحاد الكتاب العرب، سنة: 1981.
59- وليد محمد مراد، نظرية النظم وقيمتها العلمية في الدراسات اللغوية عند عبد القاهر دار الفكر، ط/1، دمشق، سوريا، سنة: 1983.

ثالثا: الرسائل

1- عبد الله عبد الرحمن بانقيب، مناهج التحليل البلاغي عند علماء الإعجاز، رسالة دكتوراه، إشراف: محمود توفيق محمد سعيد، سنة: 2008/2007، جامعة أم القرى مكة المكرمة، السعودية.

رابعا: المجلات والدوريات

1- السلمي عبد الرحمن بن رجاء الله، العدول بين صيغ الإفراد والتثنية والجمع في القرآن الكريم، مجلة جامعة أم القرى لعلوم اللغات وآدابها، مكة المكرمة، السعودية، العدد: 12 فيفري: 2014.
2- سيد عبد الفتاح حجاب، نهج عبد القاهر بين الموضوعية والذاتية، مجلة كلية اللغة العربية بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الرياض، العدد: 10، سنة: 1980.
3- العمري أحمد جمال، أبو بكر الباقلاني ومفهومه للإعجاز القرآني، الناشر الجامعة الإسلامية، المدينة المنورة، العدد: 3، سنة: 1976، السنة: التاسعة.
4- محجوب الحسن محمد، الإحكام المعجز في بلاغة القرآن، مجلة جامعة الملك عبد العزيز، الآداب والعلوم الإنسانية، السعودية، م/7، سنة: 1994.
5- . إبراهيم بن منصور التركي، القول بالصرفة في إعجاز القرآن الكريم عرض ودراسة، مجلة جامعة أم القرى، مكة المكرمة، المملكة العربية السعودية، العدد: 2، يوليو 2009.

خامسا: مواقع الانترنت

1- عبد الله خضر حمد، التفكيك في الفكر العربي القديم جهود عبد القاهر الجرجاني أنموذجا، مكتبة القلم.

2- أبو رحمة عماد محمود علي، نظرية النظم عند الجرجاني وعلاقتها بمفهوم البنية في النقد الحديث، التاريخ: 2001/12/20، الألوكة للإصدارات والمسابقات، موقع الألوكة.

3- بن عيسى بطاهر، نظرية الأسلوب عند حازم القرطاجني، قسم اللغة العربية، جامعة الشارقة، الإمارات العربية المتحدة.

فهرس
الموضوعات

فهرس الموضوعات

- **مقدمة**.....04
- **المحاضرات**.....08

المحاضرة الأولى:المرجعيات المؤسسة لعلوم البلاغة

- مفهوم النظرية.....09
- لغة القرآن الكريم ومواقف العرب منها.....11
- لغة القرآن الكريم والإعجاز.....15
  - الإعجاز لغة.....15
  - الإعجاز اصطلاحا.....15
  - الإعجاز الوسيلة والغاية.....16
  - الآيات الكريمة التي تحدت العرب.....17
  - الإعجاز والبلاغة.....19

عند المتقدمين: ـ الرماني.....21

- الخطابي.....20
- الباقلاني.....21
- السيوطي.....22
- عبد القاهر.....22

عند المتأخرين: ـ عبد الكريم الخطيب.....23

- أحمد ياسوف.....23

– عبد الفتاح الخالدي.....24
– المطغي عبد العظيم إبراهيم محمد.....24
– عائشة عبد الرحمن.....24
– مصطفى صادق الرافعي.....25

المحاضرة الثانية: إرهاصات نظرية النظم

– إشكالية اللفظ والمعنى.....26
– اللفظ والمعنى في اللغة والاصطلاح.....27
– الجاحظ وقضية اللفظ والمعنى.....28
– العسكري وانتصاره للفظ.....30
– أنصار المعنى.....30
– التوفيق والتكافل.....30
– عبد القاهر وثنائية اللفظ والمعنى.....32
– عبد القاهر وقضاؤه على ثنائية اللفظ والمعنى.....34
– الحقيقة والمجاز.....36

- الحقيقة لغة 36
- الحقيقة اصطلاحا.....36
- المجاز لغة 36
- المجاز اصطلاحا.....36

المحاضرة الثالثة: النظم قبل عبد القاهر

- النظم في اللغة.....40
- النظم في الاصطلاح.....40
- مشروعية القول بمصطلح النظم.....42
- عبد القاهر الجرجاني ونظرية النظم.....44
- محيطه ونشأته.....44
- تعلمه وتعليمه.....45
- مؤلفاته.....46
- طبيعة منهجه.....46
- النظم قبل عبد القاهر.....47
- الجاحظ وحقيقة ما ذهب إليه.....48
- الخطابي والإعجاز بالنظم.....49
- الباقلاني والإعجاز ببديع النظم.....51

المحاضرة الرابعة: عبد القاهر ونظرية النظم.

- إفادة عبد القاهر ممن سبقه إلى هذا التوجه.....54
- النظم والفاعلية الجمالية.....56
- معاني النحو.....60
- التعليق والبعد الإجرائي.....61
- التعليق والخلفية النفسية.....63
- من تطبيقات عبد القاهر.....65

المحاضرة الخامسة: النظم عند ابن الأثير وحازم القرطاجني.

- ابن الأثير.....71
- حازم القرطاجني.....74

المحاضرة السادسة: النظم عند المتأخرين.

- محمد عبد المنعم خفاجي.....79
- بدوي طبانة.....80
- درويش الجندي.....81
- وليد محمد مراد.....82
- أحمد مطلوب.....82

المحاضرة السابعة: من النظم إلى الأسلوبية.

- البعد الأسلوبي في التراث النقدي والبلاغي.....86

المحاضرة الثامنة: نظرية النظم والبنيوية.

- النظم وإرهاصات الاتجاه البنيوي.....90
- **الملحق**.....95
- **خاتمة**.....99
- **فهرس المصادر والمراجع**.....102
- **فهرس الموضوعات**.....114